رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الجهل والتخلف وغياب المرجعية

إعـداد

الدكتور فتحي محمد الزغبي

أستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية بجامعة الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ – ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ

٢٨ – ٣٠ / سـبتمبر / ٢٠١٤ م

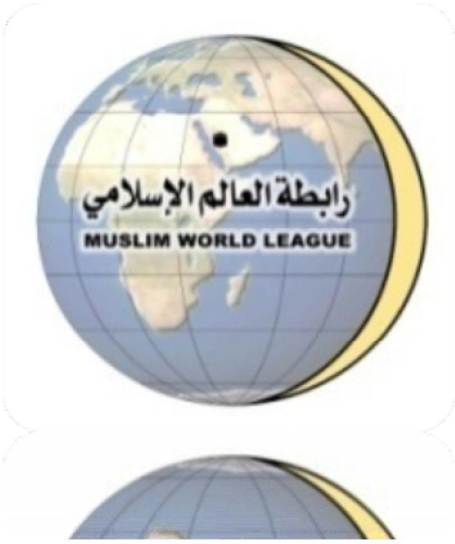

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه،،، أما بعد:

تحديد مشكلة البحث: لا شك أن الثقافة الإسلامية في العصر الحاضر تواجه عددا من التحديات الداخلية والخارجية، وتعاني من المشكلات المحلية والعالمية، ومن أبرز هذه المشكلات، وتلك التحديات، مشكلات الجهل والتخلف وغياب المرجعية، وهي مشكلة ثلاثية متصلة الحلقات، حيث يرتبط بعضها ببعض، ويترتب بعضها على البعض الآخر، بمعنى أنه إذا شاع الجهل وساد في النفوس، تمكن التخلف من العقول والأفكار، وتقهقر المجتمع إلى الخلف، وغابت المرجعية وتلاشت، وصار الناس بلا إمام يرشدهم، ولا هدي ولا كتاب منير، وكأن الحديث الشريف المتفق عليه قد جمع هذه القضايا وتحدث عنها في وقت واحد، ولا غرو في ذلك، فإنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، ففي صحيح البخاري عن عبد اللّهِ بن عَمْرو بن الْعاصِ رضي الله عنه قال: سمعت رسُولَ اللّهِ ﷺ يقول: «**إنَّ اللّهَ لا يَقْبضُ الْعلْمَ انْتزَاعًا يَنْتَزعُهُ من الْعبَادِ، وَلَكنْ يَقْبضُ الْعلْمَ بقَبْضِ الْعُلمَاءِ، حتى إذا لم يُبقِ عَالمًا اتّخَذَ الناس رؤوسا جُهّالًا فَسُئلُوا فأَفْتَوْا بغَيْرِ علْم فضَلُّوا وأَضَلُّوا**»[1]، وفي صحيح مسلم عنه أيضا رضي الله عنه قال: سمعت رَسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «**إنَّ اللّهَ لا يَقْبضُ الْعلْمَ انْتزَاعًا يَنْتَزِعهُ من الناس، وَلَكنْ يَقْبضُ الْعلْمَ بقَبْضِ الْعلَمَاءِ، حتى إذا لم يَتْركْ عَالمًا اتّخَذَ الناس**

(١) الجامع الصحيح المختصر، صحيح البخاري جزء ١ صفحة ٥٠.

رؤوسا جهَّالًا فَسئِلُوا فَأَفتَوْا بغَيْرِ علْمٍ فَضَلّوا وَأَضَلّوا»[١]، فحينما يقبض الله العلم بذهاب العلماء يسود الجهل وينتشر، ويترأس الجهلاء ويسودون، فيفتون ويضلون، وينتشر بذلك الجمود والتخلف في المجتمعات، وتغيب المرجعية العلمية بذهاب العلماء، ويتولى الجهلاء زمام الأمور فتنتشر الضلالات، وتعم الفتن والبلاءات، ولا شك أن كل قضية من هذه القضايا الثلاث: (الجهل، التخلف، غياب المرجعية) يستحق بحثا مستقلا.

الدراسات السابقة: لا شك أن هناك دراسات وأبحاثا كثيرة، تتعلق بدراسة التحديات التي تواجه ثقافتنا الإسلامية المعاصرة، في الداخل والخارج، محليا ودوليا ، لكني لم أجد - حسب علمي - من خصص بحثا لدراسة هذه التحديات الثلاثة، فجاء البحث جديدا في اسمه وعنوانه، فريدا في خطته وبنيانه.

خطة البحث: تم تقسيم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

المقدمة: وتشمل تحديد مشكلة البحث، ومنهج البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

المبحث الأول: التحدي الأول (الجهل)، واشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الجهل في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: مفهوم الجهل في نصوص القرآن الكريم.

المطلب الثالث: من أضرار الجهل ومفاسده.

المطلب الرابع: الجهل سبب من أسباب الغلو والتطرف.

---

(١) صحيح مسلم جزء ٤ صفحة ٢٠٥٨.

المبحث الثاني: التحدي الثاني (التخلف)، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التخلف في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: دور الاستعمار الأوربي في تخلف العالم الإسلامي.

المطلب الثالث: من أسباب التأخر والانحطاط، وعوامل التخلف في العالم الإسلامي.

المبحث الثالث: التحدي الثالث (غياب المرجعية)، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم المرجعية في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: المرجعية في المفهوم القرآني والفكر الإسلامي.

المطلب الثالث: غياب المرجعية وأثره على الثقافة الإسلامية.

الخاتمة: وتضمنت أهم نتائج البحث.

المبحث الأول
التحدي الأول: الجهل

المطلب الأول: مفهوم الجهل في اللغة والاصطلاح:

جاء في لسان العرب لابن منظور أن الجَهْل: نَقيض العِلْم، وقد جَهِله فلان جَهْلاً وجَهَالة وجَهِلَ عليه وتَجَاهَل: أَظهر الجَهْل، عن سيبويه. الجوهري: تَجَاهَل أَرَى من نفسه الجَهْل وليس به، واسْتَجْهَله: عَدَّه جاهِلاً، واسْتَخَفَّه أَيضاً. والتجهيل: أَن تنسبه إِلى الجَهْل، وجَهِل فلان حَقَّ فلان، وجَهِلَ فلان عَلَيَّ، وجَهِلَ بهذا الأَمر، وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ [البقرة: ٢٧٣] يعني الجاهِل بحالهم، ولم يُرِدِ الجاهِلَ الذي هو ضد العاقل، إِنما أَراد الجَهْل الذي هو ضد الخِبْرة، يقال: هو يَجْهَل ذلك أَي لا يعرفه[١]. وجاء في المعجم الوسيط: جهل فلان على غيره جهلا وجهالة، أي جفا وتسافه، وفي التنزيل العزيز: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وجهل الشيء وبه، أي لم يعرفه، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وجهل الحق أضاعه، فهو جاهل[٢].

الجهل في الاصطلاح: جاء في التعريفات أن الجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، وأن الجهل البسيط هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما، والجهل المركب هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع[٣].

---

(١) لسان العرب جزء ١١ صفحة ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) المعجم الوسيط جزء ١ صفحة ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) التعريفات جزء ١ صفحة ١٠٨.

والجهل يقال اعتبارا بالاعتقاد؛ والغَي يقال اعتبارا بالأفعال؛ ولهذا قيل: زوال الجهل بالعلم، وزوال الغي بالرشد، ويقال لمن أصاب: رشد؛ ولمن أخطأ: غوى، والجهل أنواع: باطل لا يصلح عذرا، وهو جهل الكافر بصفات الله وأحكامه، وكذا جهل الباغي، وجهل من خالف في اجتهاده الكتاب والسنة، كالفتوى ببيع أمهات الأولاد، بخلاف الجهل في موضع الاجتهاد، فإنه يصلح عذرا، وهو الصحيح، وكذا الجهل في موضع الشبهة، وأما جهل ذوي الهوى بالأحكام المتعلقة بالآخرة كعذاب القبر والرؤية والشفاعة لأهل الكبائر، وعفو ما دون الكفر، وعدم خلود الفساق في النار فلم يكن هذا الجهل عذرا؛ لكونه مخالفا للدليل الواضح من الكتاب والسنة والمعقول، لكنه لما نشأ من التأويل للأدلة كان دون جهل الكافر[١].

المطلب الثاني: مفهوم الجهل في نصوص القرآن الكريم:

وردت كلمة (جهل) ومشتقاتها في نصوص القرآن الكريم بصيغ مختلفة: حيث وردت بصيغة (تجهلون) أربع مرات، وذلك بمعنى (تطيشون وتسفهون، أو لا تعرفون) وبصيغة (يجهلون) مرة واحدة، بالمعاني نفسها ، وبصيغة (الجاهل) مرة واحدة، بمعنى (الذي لا يعرف)، وبصيغة (جاهلون) مرة واحدة، بمعنى (طائشون سفهاء)، وبصيغة (الجاهلون) مرتين، بمعنى (الطائشون السفهاء، وبمعنى الذين لا معرفة لديهم)، وكذلك وردت بصيغة (الجاهلين) ست مرات، بمعنى الخالين من المعرفة ، وبمعنى الذين لا يعلمون أن الإيمان إنما هو بمشيئة الله، وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، وبمعنى الذين ليس لهم به علم، وبمعنى (الطائشين السفهاء)، وبصيغة (جهولا) مرة واحدة، بمعنى خاليا

(١) كتاب الكليات جزء ١ صفحة ٣٥٠.

من المعرفة ، صيغة مبالغة ، وبصيغة (الجاهلية) أربع مرات، بمعنى (الحالة التي كانت عليها الأمة قبل النبوة)، وبصيغة (بجهالة) أربع مرات، بمعنى (طيش، وعدم معرفة)[١]، ويذكر الراغب الأصفهاني في كتابه (المفردات) أن الجهل على ثلاثة أضرب: الأول: وهو خلو النفس من العلم، والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أو فاسدا، كمن يترك الصلاة متعمدا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، فجعل فعل الهزو جهلا، وقال عز وجل: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾، والجاهل تارة يذكر على سبيل الذم، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيل الذم نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، أي من لا يعرف حالهم، وليس يعني المتخصص بالجهل المذموم[٢]، ويذكر العلامة ابن القيم أن الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا، وحقيقة قول موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧]، لما قال له قومه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ﴾، أي من المستهزئين، وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي من مرتكبي ما حرمت عليهم، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما

---

(١) راجع تفصيل ذلك في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي مادة (جهل) ص ٢٢٥، حيث ذكر بعض نصوص الآيات وأرقامها، وأسماء السور وأرقامها، ولمعرفة معاني هذه الصيغ المختلفة راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم، الجزء الأول مادة (جهل) ص ٢٥١ – ٢٥٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن جزء ١ صفحة ١٠٢.

عُصي الله به فهو جهالة، وقال غيره: أجمع الصحابة رضي الله عنهم أن كل من عصى الله فهو جاهل، وقال الشاعر:

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا

وسمى عدم مراعاة العلم جهلا إما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجاهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقب فعله[١].

المطلب الثالث: من أخطار الجهل وأضراره:

إن الجهل بدين الله تعالى وشرعه سبيل للمهالك، وطريق للمفاسد، وذلك أن الإنسان إنما يتميز عن غيره من الكائنات الأخرى بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه؛ وأقوى بطشا؛ وأكثر أولادا؛ وأطول أعمارا، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب، فلا يبقى فيه فضل عليهم، بل قد يبقى شرا منهم، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]، فهؤلاء هم الجهال، ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، أي ليس عندهم محل قابل للخير، ولو كان محلهم قابلا للخير لأسمعهم، أي لأفهمهم، والسمع ههنا سمع فهم، والا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم. يذكر العلامة ابن القيم أن العابد الجاهل آفته من إعراضه عن العلم وأحكامه؛ وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه؛ ولهذا قال سفيان ابن عيينة وغيره: احذروا فتنة العالم الفاجر؛ وفتنة العابد الجاهل، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيه يدعو إلى الفجور، وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين جزء ١ صفحة ٤٦٩ - ٤٧٠.

لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦-١٧]، وقصته معروفة، فانه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الشيطان بجهله وكفره بجهله، فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري، وذاك إمام كل عالم فاجر يختار الدنيا على الآخرة، وقد جعل سبحانه رضى العبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه، ولا يجتمع هذان: أعني الرضى بالدنيا؛ والغفلة عن آيات الرب إلا في قلب من لا يؤمن بالمعاد؛ ولا يرجو لقاء رب العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد لما رضي بالدنيا ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله[1].

وإذا تأملت حال العرب قديمًا في جاهليتهم أدركت كيف يؤدي الجهل بأصحابه أفرادًا ومجتمعات إلى الانحطاط الخلقي والأخلاقي، والفساد الاجتماعي والبيئي، في أقصى درجاته، حتى لقد سمي ذلك العصر: بالعصر الجاهلي، وعرف أهله: بالجاهليين، وقد استعاذ ابن القيم في أول كتابه (مفتاح السعادة) ممن قصُر في العلم والدين باعه، وطالت في الجهل وآذى عبادك ذراعه؛ فهو لجهله يرى الإحسان إساءة؛ والسنة بدعة؛ والعرف نكرا؛ ولظلمه يجزي بالحسنة سيئة كاملة، وبالسيئة الواحدة عشرا، قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سلما إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه، ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه، يستطيل على أولياء الرسول ﷺ وحزبه بأصغريه، ويجالس أهل الغي والجهالة ويزاحمهم بركبتيه، قد ارتوى من ماء آجن وتضلع، واستشرف إلى مراتب ورثة الأنبياء وتطلع، يركض في ميدان

(١) الفوائد جزء ١ صفحة ١٠٢ - ١٠٣.

جهله مع الجاهلين، ويبرز عليهم في الجهالة فيظن أنه من السابقين.

وما أحسن ما قال القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور[١]

يقول رسول الله ﷺ: «**سيأتي على الناس سنوات خداعات، يُصَدق فيها الكاذب، ويُكذب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»[٢]، «**إن بين يدي الساعة سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويُخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قيل: المرء التافه يتكلم في أمر العامة**»[٣]، وجاء في لسان العرب: قال أَبو عبيد: وممَّا يُثبت حديث الرُّوَيْبضة الحديث الآخرُ: «**من أَشراط الساعة أَن يُرَى رِعاءُ الشاءِ رُؤُوسَ الناس**»، قال أَبو منصور: الرُّوَيْبضةُ تصغير رابضةٍ، وهو الذي يرعى الغنم، وقيل: هو العاجز الذي رَبَضَ عن معَالى الأُمور وقَعَد عن طَلَبها، وزيادة الهاء للمبالغة في وصفه، جعل الرابضةَ رَاعِيَ الرَّبيض، كما يقال: داهية، قال: والغالب أَنَّه قيل للتافه من الناس رابضة ورويبضة لربوضه في

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، جزء ١ صفحة ٤٧ – ٤٨.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤٠٤٢) والحاكم (٤ / ٤٦٥، ٥١٢) وأحمد (٢ / ٢٩١) والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص ٣٠).راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ج ٤ ص ٥٠٩.

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» (٣٣٧٣ - الكشف) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨ / ٦٧ / ١٢٥).

بيته؛ وقلة انبعاثه في الأُمور الجسيمة. قال: ومنه يقال: رجل رُبُضٌ عن الحاجات والأَسْفار إذا كان لا يَنْهَضُ فيها[١]. ومعنى ذلك أن الرويبضة تطلق على الذين يتصدرون المجالس، بل وأحيانا المناصب والولايات، فيتكلمون ويتصرفون في أمور الناس دون أن يكون لديهم أثارة من معرفة أو علم، فقد صارت الصدارة لهؤلاء المتفيهقين والمتشدقين الذين يحملون الناس على فتاوى شاذة وغريبة، بل إنها تؤدي إلى البعد عن الدين والنفور عن المسلمين. وقد وصف العلامة ابن القيم حال هؤلاء المتعالمين بأنهم (أقوام رُؤيَتُهُمْ قذَى العُيُونِ؛ وشَجَى الحُلُوقِ؛ وَكَربُ النّفُوس؛ وحُمَّى الأرواح؛ وغَمُّ الصّدُورِ، ومَرَضُ القُلُوب، وإنْ أنصفتهم لم تَقبَلْ طبيعَتُهُمْ الإنصاف، وإن طَلَبته منهم فَأَينَ الثُّريَّا من يدِ المُلْتَمِس، قد انتكَسَتْ قلُوبُهُمْ؛ وعمى عليهم مطلوبهم، رضُوا بالأماني؛ وَابتُلُوا بالحُظُوظِ؛ وحَصَلُوا على الحِرْمَانِ؛ وخَاضُوا بحارَ العِلْم؛ لكِنْ بالدعاوى البَاطِلَةِ؛ وشَقَاشِقِ الهَذَيَانِ)[٢]، وقد رأَى رَجلٌ رَبيعَةَ بن أبى عبد الرحمن يَبْكى فقال ما يبْكِيكَ؟ فقال: استفتى من لا علْمَ له؛ وظَهَرَ فِي الْإِسْلَام أَمرٌ عَظيمٌ، قال: وَلَبَعْض من يفْتِى ها هنا أَحَقُّ بالسِّجْن من السّرَّاقِ. قال بَعضُ الْعلَمَاءِ: فَكَيفَ لو رأَى رَبيعَةُ زمَانَنَا وَإِقْدَام من لا علْمَ عنْدَهُ على الْفتْيَا؛ وَتَوَثّبَهُ عليها؛ ومَدَّ باع التَّكَلّفِ إلَيهَا؛ وَتَسَلّقَهُ بالْجَهْل وَالْجرْأَةَ عليها، مع قلَّةِ الْخبْرَةِ وَسوءِ السّيرَةِ وَشؤْم السَّريرَةِ، وهو من بَين أَهل الْعلْم منْكَرٌ أو غريب[٣].

والجاهل إذا ساد أو قاد أفسد وأهلك، وضل وأضل، وعندئذ هو ومن قاده أموات يصدق عليهم ما ذكره الشاعر:

---

(١) لسان العرب جزء ٧ صفحة ١٥٣.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين جزء ٤ صفحة ١٧١ – ١٧٣.

(٣) إعلام الموقعين جزء ٤ صفحة ٢٠٧.

لاَ يَصْلُحُ القَومُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لَهُمْ ... ولا سَــرَاةَ إِذَا جُهَّــالُهُمْ سَــادُوا
تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهل الرَّأي مَا صَلَحَتْ ... فــإِنْ تَوَلَّــتْ فَبِالأَشْــرَارِ تَنْقَــادُ[١]

وقد سبقت الإشارة إلى حديث قبض العلماء كما جاء في الصحيحين، وفي رواية أخرى أنَّ أبَا هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّهِ ﷺ: «**يتَقَارَبُ الزّمَانُ، وَيُقبَضُ العِلْمُ، وَتَظهَرُ الفِتَنُ، وَيُلقَى الشّحُّ، وَيَكثُرُ الهَرْجُ، قالوا: وما الهَرْجُ؟ قال: القَتْلُ**»، وفي شرح صحيح مسلم للنووي تحت عنوان: (باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان): قوله ﷺ: «**من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل، وتُشرب الخمر، ويظهر الزنى**»، هكذا هو في كثير من النسخ (يثبت الجهل) من الثبوت، وفي بعضها (يبث) بضم الياء وبعدها موحدة مفتوحة ثم مثلثة مشددة، أي ينشر ويشيع، ومعنى تشرب الخمر شربا فاشيا، ويظهر الزنى أي يفشو وينتشر، كما صرح به في الرواية الثانية، وأشراط الساعة علاماتها، واحدها شَرَط، بفتح الشين والراء، ويقل الرجال بسبب القتل، وتكثر النساء فلهذا يكثر الجهل والفساد، ويظهر الزنى والخمر، ويتقارب الزمان أي يقرب من القيامة[٢].

وفي رواية (وينقص العلم)، هذا يكون قبل قبضه كما في قوله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»، يذكر النووي أن هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه، ولكن معناه أنه

(١) الشعر والشعراء جزء ١ صفحة ٢٢٣.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم جزء ١٦ صفحة ٢٢١.

يموت حملته، ويتخذ الناس جهالا يحكمون بجهالاتهم فيضلون ويضلون[١].

ويرى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ أن الجهل هو أساس كل البلايا، وأصل كل الرزايا، فيذكر أن أسباب الضعف والتأخر وتسليط الأعداء ترجع إلى سبب نشأت عنه أسباب كثيرة، وعامل واحد نشأت عنه عوامل كثيرة، وهذا السبب الواحد والعامل الواحد هو: الجهل؛ الجهل بالله وبدينه، وبالعواقب التي استولت على الأكثرية، فصار العلم قليلاً والجهل غالبا، وعن هذا الجهل نشأت أسباب وعوامل، منها: حب الدنيا وكراهية الموت، ومنها إضاعة الصلوات واتباع الشهوات، ومنها عدم الإعداد للعدو، والرضى بأخذ حاجاتهم من عدوهم، وعدم الهمة العالية في إنتاج حاجاتهم من بلادهم وثرواتهم، ونشأ عن ذلك أيضا التفرق والاختلاف؛ وعدم جمع الكلمة؛ وعدم الاتحاد وعدم التعاون، ويدل على أن أعظم الأسباب هو الجهل بالله وبدينه؛ وبالحقائق التي يجب التمسك والأخذ بها هو قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح، كما في البخاري ومسلم: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»، مع آيات في المعنى وأحاديث كلها تدل على خبث الجهل؛ وخبث عواقبه ونهايته وما يترتب عليه، بل القرآن الكريم مملوء بالتنديد بالجهل وأهله، والتحذير منه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وعن الجهل نشأت هذه الأشياء التي سبقت من فرقة واختلاف؛ وإقبال على الشهوات؛ وإضاعة لما أوجب الله، وعدم إيثار الآخرة، وعدم الانتساب إليها بصدق، بل لا يهم الأكثرية إلا هذه العاجلة كما جاء في الآية الكريمة من كتاب الله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وكما في قوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ

(١) شرح النووي على صحيح مسلم جزء ١٦ صفحة ٢٢٣ - ٢٢٤ راجع فتح الباري شرح صحيح البخاري، جزء ١٣ صفحة ٢٨٤ – ٢٨٧.

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]، وعن الجهل أيضا نشأت هذه الكوارث وهذه العواقب الرديئة التي هي حب الدنيا وكراهية الموت، والإقبال على الشهوات وإضاعة الواجبات والصلوات؛ وإضاعة الإعداد للعدو من كل الوجوه إلا ما شاء الله من ذلك[١].

ويرى الفخر الرازي أن الإنسان أفضل من سائر الحيوانات، وليست تلك الفضيلة لقوته وصولته، فإن كثيراً من الحيوانات يساويه فيها أو يزيد عليه، فإذن تلك الفضيلة ليست إلا لاختصاصه بالمزية النورانية واللطيفة الربانية التي لأجلها صار مستعداً لإدراك حقائق الأشياء والاطلاع عليها؛ والاشتغال بعبادة الله على ما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأيضًا الجاهل كأنه في ظلمة شديدة لا يرى شيئًا ألبتة، والعالم كأنه يطير في أقطار الملكوت، ويسبح في بحار المعقولات، فأي سعادة فوق هذه الدرجة، ثم إنه بعد صيرورته كذلك تصير النفوس الجاهلة عالمة، فتصير تلك النفس كالشمس في عالم الأرواح، وسببًا للحياة الأبدية لسائر النفوس، فإنها كانت كاملة ثم صارت مكملة، وتصير واسطة بين الله وبين عباده، ولهذا قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢]، والمفسرون فسروا هذا الروح بالعلم والقرآن[٢].

ويرى الإمام الغزالي أن العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله؛ وحكمته في ملكوت السموات والأرض؛ وترتيب الدنيا والآخرة؛ وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى، ويبقى كمالا للنفس بعد

---

(١) أسباب ضعف المسلمين أمام عدوهم ووسائل العلاج لذلك، موقع سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) التفسير الكبير جزء ٢ صفحة ١٨٢.

الموت، وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]، أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي فإنه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور الخفي على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، بل كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، فإذن لا سعادة إلا في معرفة الله تعالى، وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلا[١]، وهكذا يجب على كل مسلم أن يعرف ما يحل له؛ وما يحرم عليه من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والأموال، فجميع هذا لا يسع أحداً جهله، وفرض عليهم أن يأخذوا في تعلم ذلك حتى يبلغوا الحلم وهم مسلمون، أو حين يسلمون بعد بلوغ الحلم[٢].

وقد أنشد الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ فقال:

اصبر على مرِّ الجفا من معلمٍ ... فإنَّ رسوبَ العلمِ في نفراتهِ
ومنْ لم يذق مرَّ التعلمِ ساعةً ... تجرّعَ نلَّ الجهل طولَ حياته
ومن فاتهُ التّعليمُ وقتَ شبابهِ ... فكبّر عليه أربعاً لوفاته
وذَاتُ الفَتَى واللّهِ بالْعلْمِ وَالتّقَى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتهِ[٣]

(١) إحياء علوم الدين جزء ٣ صفحة ٢٨٣.
(٢) الفقيه والمتفقه جزء ١ صفحة ١٧٣ - ١٧٤.
(٣) ديوان الإمام الشافعي جزء ١ صفحة ٢٦، ٣٢.

المطلب الرابع: الجهل سبب من أسباب الغلو والتطرف:

لا شك أن من الأسباب الأساسية للغلو والتطرف، هو الجهل بأحكام الدين وضعف البصيرة بحقيقته، وقلة البضاعة في فقهه والتعمق في معرفة أسراره، والوصول إلى فهم مقاصده، واستشفاف روحه، ولا أعني بهذا السبب: الجهل المطلق بالدين، فهذا في العادة لا يفضي إلى غلو وتطرف، بل إلى نقيضه، وهو الانحلال والتسيب، إنما أعني به: نصف العلم، الذي يظن صاحبه به أنه دخل في زمرة العالِمين، وهو يجهل الكثير والكثير، فهو يعرف نتفًا من العلم من هنا وهناك وهنالك، غير متماسكة، ولا مترابطة، يُعنى بما يطفو على السطح، ولا يهتم بما يرسب في الأعماق، وهو لا يربط الجزئيات بالكليات، ولا يرد المتشابهات إلى المحكمات، ولا يحاكم الظنيات إلى القطعيات، ولا يعرف من فنون التعارض والترجيح ما يستطيع به أن يجمع به بين المختلفات، أو يرجح بين الأدلة والاعتبارات[1]. يذكر الإمام أبو إسحاق الشاطبي أن الابتداع والاختلاف المذموم يؤدي إلى تفرق الأمة شيعًا، وجعل بأسها بينها شديدًا، حيث إن البدع مظنة إلقاء العداوة بين أهل الإسلام، وذلك لأنها تقتضي التفرق شيعا، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، وقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وما أشبه ذلك من الآيات في هذا المعنى، وقد بين عليه

(١) راجع الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوي ص ٦٢ كتاب الأمة.

الصلاة والسلام أن فساد ذات البين هي الحالقة، وأنها تحلق الدين، هذه الشواهد تدل على وقوع الافتراق والعداوة عند وقوع الابتداع، وأول شاهد عليه في الواقع قصة الخوارج، إذ عادوا أهل الإسلام حتى صاروا يقتلونهم، ويَدَعون الكفار، كما أخبر عنه الحديث الصحيح، ثم يليهم كل من كان له صولة منهم، وقرب الملوك، فإنهم تناولوا أهل السنة بكل نكال وعذاب وقتل أيضا، حسبما بينه جميع أهل الاخبار[١]، ويؤكد الشاطبي على أن كل راسخ لا يبتدع أبدا، وإنما يقع الابتداع – وهذا هو وجه الشاهد هنا – ممن لم يتمكن من العلم الذي ابتدع فيه، حسبما دل عليه الحديث: «**فإنما يؤتى الناس من قبل جهالهم الذين يحسبون أنهم علماء**»[٢]، وروي عن مكحول أنه قال: تفقه الرعاع فساد الدين والدنيا، وتفقه السفلة فساد الدين، وقال الفرياني: كان سفيان الثوري إذا رأى هؤلاء النبط يكتبون العلم تغير وجهه، فقلت: يا أبا عبدالله، أراك إذا رأيت هؤلاء يكتبون العلم يشتد عليك، قال: كان العلم في العرب وفي سادات الناس، وإذا خرج عنهم وصار إلى هؤلاء النبط والسفلة غُير الدين. وينتهي العلامة الشاطبي إلى أن هذه الآثار أيضا إذا حملت على التأويل المتقدم اشتدت واستقامت، لأن ظواهرها مشكلة، ولعلك إذا استقريت أهل البدع من المتكلمين أو أكثرهم وجدتهم من أبناء سبايا الأمم؛ ومن ليس له أصالة في اللسان العربي، فعما قريب يفهم كتاب الله على غير وجهه، كما أن من لم يتفقه في مقاصد الشريعة فهمها على غير وجهها[٣]، والحق أن نِصف العلم ـ مع العُجب والغرور ـ يضر أكثر من الجهل الكلي مع الاعتراف، لأن هذا جهل

(١) الاعتصام جزء ١ صفحة ١١٨.
(٢) الاعتصام جزء ١ صفحة ١٤٥.
(٣) الاعتصام جزء ٢ صفحة ١٧٢ – ١٧٥.

بسيط، وذلك جهل مركب، وهو جهل من لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، ومن أنواع الجهل الذي يعد سببا أساسيا وراء الغلو والانحراف في فهم الدين قديمًا وحديثًا، هو اتباع المتشابهات من النصوص، وترك المحكمات البينات، وهذا لا يصدر من راسخ في العلم، إنما هو شأن الذين في قلوبهم زيغ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، والمراد بالمتشابه: ما كان محتمل المعنى، وغير منضبط المدلول، وأعني بالمحكم: ما كان بيِّن المعنى، واضح الدلالة، محدد المفهوم، فترى الغلاة والمبتدعين من قديم يجرون وراء المتشابهات، يملؤون بها جعبتهم، ويتخذون منها عدتهم، معرضين عن المحكمات، وهي التي فيها القول الفصل، والحكم العدل. وانظر إلى غلاة اليوم تجدهم يعتمدون على المتشابهات في تحديد كثير من المفاهيم الكبيرة التي رتبوا عليها نتائج خطيرة، بل بالغة الخطر، في الحكم على الأفراد والجماعات، وتقويمهم، وتكييف العلاقة بهم من حيث الولاء والعداء، والحب والبغض، واعتبارهم مؤمنين يُتولّون، أو كفارًا يقاتلون.

وهذه السطحية في الفهم، والتسرع في الحكم، وخطف الأحكام من النصوص خطفًا دون تأمل ولا مقارنة - نتيجة لترك المحكمات البينات، واتباع المتشابهات المحتملات - هي التي جعلت طائفة الخوارج قديمًا تسقط في ورطة التكفير لمن عداهم من المسلمين، وتقاتل رجل الإسلام العظيم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كانوا جنودًا في جيشه، مستندين إلى أفهام عجيبة، بل أوهام غريبة، في دين الله تعالى.

ولذلك فإن الشهرستاني يرجع بنشأة فكرة الخوارج إلى عصر النبي ﷺ، حيث اعتبر حديث ذي الخويصرة التميمي إذ قال: اعدل يا محمد! فإنك لم تعدل، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «**إن لم أعدل فمن يعدل؟**»، فعاد اللعين

وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، وذلك خروج صريح على النبي عليه الصلاة والسلام، ولو صار من اعترض على الإمام الحق خارجيا فمن اعترض على الرسول أحق بأن يكون خارجيا، أوليس ذلك قولا بتحسين العقل وتقبيحه، وحكما بالهوى في مقابلة النص؛ واستكبارا على الأمر بقياس العقل، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «**سيخرج من ضئضيء هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[(١)]، وبما جاء فيهم كقول النبي ﷺ: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة**»، وقد كان أولهم خرج على عهد رسول الله، فلما رأى قسمة النبي قال: يا محمد اعدل، فإنك لم تعدل، فقال له النبي ﷺ: «**لقد خبت وخسرت إن لم أعدل**»، فقال له بعض أصحابه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**إنه يخرج من ضئضيء هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم**»، الحديث.

فكان مبدأ البدع هو الطعن في السنة بالظن والهوى، كما طعن إبليس في أمر ربه برأيه وهواه[(٢)]، ويرى الحافظ ابن كثير أن هذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفا من كلام الصحابي، ومعناه صحيح، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا، ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتلهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء

---

(١) الملل والنحل جزء ١ صفحة ٢١.

(٢) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى جزء ٣ صفحة ٣٥٠ .

ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم انبعث القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ[١]، يذكر العلامة الشاطبي أن أسباب الخلاف المذموم والتفرق راجعة في التحصيل إلى وجه واحد، وهو الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ في العلم، ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا عن الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمي، لأن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يعني - والله أعلم- أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم، لأن الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم، وما تقدم أيضا من قوله عليه الصلاة والسلام إن الله لا يقبض العلم انتزاعا... إلى آخره، فهذا معنى الرأي الذي نبه عليه ابن عباس رضي الله عنه، وهو الناشئ عن الجهل بالمعنى الذي نزل فيه القرآن، وقال نافع إن ابن عمر كان إذا سئل عن الحرورية قال: يكفرون المسلمين؛ ويستحلون دماءهم وأموالهم؛ وينكحون النساء في عددهن؛ وتأتيهم المرأة فينكحها الرجل منهم ولها زوج، فلا أعلم أحدا أحق بالقتال منهم[٢].

وقد بين الغزالي سبب انقياد الخلق إلى الباطنية وتساءل: فإن قيل: هذا أيضا مع الكتمان ظاهر البطلان؛ فكيف ينخدع بمثله عاقل؟ ويجيب: قلنا لا ينخدع به إلا المائلون عن اعتدال الحال واستقامة الرأي، فللعقلاء عوارض تعمي

(١) تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير جزء ١ صفحة ٣٤٧.
(٢) راجع المصدر السابق جزء ٢ صفحة ١٨٢- ١٨٤.

عليهم طرق الصواب، وتقضي عليهم بالانخداع بلامع السراب، وهي ثمانية أصناف، نقتصر على ذكر الصنف الأول، وهو ما يهمنا هنا: طائفة ضعفت عقولهم؛ وقلت بصائرهم؛ وسخفت في أمور الدين آراؤهم؛ لما جبلوا عليه من البله والبلادة، مثل السواد وأفجاج العرب والأكراد وجفاة الأعاجم وسفهاء الأحداث، ولعل هذا الصنف هم أكبر الناس عددا، ثم يقول الغزالي: وكيف يستبعد قبولهم لذلك ونحن نشاهد جماعة في بعض المدائن القريبة من البصرة يعبدون أناسا يزعمون أنهم ورثوا الربوبية من آبائهم، المعروفين بالشباسية، وقد اعتقدت طائفة في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه إله السموات والأرض رب العالمين، وهم خلق كثير لا يحصرهم عدد، ولا يحويهم بلد، فلا ينبغي أن يكثر التعجب من جهل الإنسان إذا استحوذ عليه الشيطان؛ واستولى عليه الخذلان[1].

(١) فضائح الباطنية جزء ١ صفحة ٣٣ – ٣٤

المبحث الثاني

التحدي الثاني: التخلف

المطلب الأول: تحديد مفهوم التخلف:

على الرغم من الأهمية البالغة التي تتسم بها مشكلة التخلف الحضاري لدى المسلمين، فإنها لا تأخذ من اهتمام الكتاب والباحثين القدر الذي تستحقه، وكل ما نقرأه حولها لا يعدو أكثر من شذرات متناثرة تتناول جانباً أو آخر من المشكلة، دون أن تنظر إليها في مجملها، ولعل ذلك راجع إلى عدم الاتفاق على تحديد مفهوم التخلف، فقد أدى عدم الاهتمام بمشكلة التخلف إلى تجنب البحث فيها، وبالتالي عدم الوقوف على مقاييس دقيقة يمكن الاحتكام إليها. ويذكر الدكتور حامد طاهر أن مفهوم التخلف الحضاري من المفاهيم التي يصعب بالفعل إدراكه دون مقارنته بالمفهوم المقابل له، وهو مفهوم التقدم الحضاري، ولذلك فإننا إذا توصلنا إلى تحديد مفهوم التقدم أمكن الاتفاق على تحديد مفهوم التخلف، ودون الدخول في شبكة مزعجة من التعريفات، نرى تعريف التقدم الحضاري بأنه (حركة المجتمع إلى الأمام)، ومن الواضح أن هذه الحركة تكون ذات طابع جماعي، ناتج بالضرورة عن حشد هائل ومتنوع من ألوان التقدم الفردية[1]، وجاء في المعجم الفلسفي أن التقدم بوجه عام يعني مجرد السير إلى الأمام في اتجاه معين، دون حكم على قيمة هذا السير، وبوجه خاص يطلق على الانتقال التدريجي من الحسن إلى

(١) راجع بحثا بعنوان مشكلة التخلف الحضاري عند المسلمين للدكتور حامد طاهر ص ٤٤ – ٤٦ ضمن أبحاث المؤتمر الدولي السادس للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة محرم ١٤٢٢ إبريل ٢٠٠١.

الأحسن، كالتقدم العلمي والتقدم الحضاري، ويتميز التقدم الحضاري بخاصتين: (أ) أنه مسبوق بتخطيط، (ب) يستهدف غاية على غير الحال في التطور[١]، حيث جاء فيه أن التطور نمو بطيء متدرج يؤدي إلى تحولات منظمة ومتلاحقة، ولا يكون التطور مسبوقا بتخطيط ولا مستهدفا لغاية، على عكس التقدم[٢]، لكننا عند تحليل مفهوم التقدم الحضاري نكتشف أنه ينقسم إلى قسمين: أحدهما يتعلق بالوسائل، والثاني يتعلق بالأهداف، أما تقدم الوسائل فهو ذو طابع مادي، ويرجع تاريخه إلى نشأة العلوم وما تبعها من تطبيقات زادت من سيطرة الإنسان على الطبيعة، واستفادته الكبيرة من خيراتها إلى أقصى حد ممكن، كما أتاحت له بذل أقل مجهود عضلي في مجال إنجاز العمل، والتمتع بأطول فترة ممكنة من الراحة، أخذ يملأها بالتسلية عن طريق متابعة الفنون والآداب، وأما تقدم الأهداف فهو الذي يهتم علماء الأخلاق - بالمعنى الواسع للأخلاق - ببيانه، وفي مقدمته: رضا الله، والخير العام، والسعادة الحقيقية وراحة البال.. إلخ، ومن الواضح أن التقدم المرتبط بهذه القيم والمثل العليا يكون ذا طابع روحي أو معنوي. والخلاصة أن التقدم الحضاري عبارة عن حركة جماعية للأمام في مجال الوسائل المادية والقيم الروحية، وبمقدار تحقق هذين القسمين وتوافر عناصر كل منهما - ولو على درجات متفاوتة - يمكن الحكم على حضارة ما بأنها متقدمة بصورة أو بأخرى[٣].

ويرجع ذلك إلى أن علماء الحضارة يرون أن هناك فرقًا بين كلٍّ من مفهوم الحضارة، والثقافة، والمدنية، فإذا كانت المدنية تعني الإبداع، والارتقاء

(١) راجع المعجم الفلسفي ص ٥١.
(٢) راجع المصدر السابق ص ٤٧.
(٣) راجع مشكلة التخلف الحضاري ص٤٦.

بالوسائل المادية التي تحقق للإنسان الرفاه في مجال الصناعة والعمران، والمواصلات والزراعات...إلخ ، أي أن موضوعها وسائل الإنسان (عالم الأشياء)، والإبداع في مجال الماديات، وأن الثقافة تعني: الارتقاء بخصائص وصفات ومزايا الإنسان، وحسن تأهيله وتربيته، واكتسابه مجموعة معارف تساهم بتشكيل شخصيته، وتكوين نظرته السوية إلى الكون والحياة، وتحديد هدفه وتكوين نسيجه العام، أي أن موضوعها الإنسان نفسه (عالم الأفكار)؛ والإبداع في مجال المعنويات.

فإن الحضارة تعني: المدنية والثقافة معًا، فإذا اقتصر التقدم العلمي على وسائل الإنسان وأشيائه المادية فقط، فلا يخرج عن كونه تقدمًا مدنيًّا، ولا يمكن تسميته حضارة، وهذا هو الحاصل اليوم في التقدم العلمي للمدنية الحديثة؛ حيث تتقدم أشياء الإنسان على حساب الإنسان ذاته؛ لأن هذا التقدم أهمل إنسانية الإنسان، وتنمية خصائصه وصفاته، وتكوين ذوقه العام وتطهير وجدانه، والارتقاء بنظرته للحياة والأحياء. إنه أخرج الإنسان بخصائصه وصفاته وأشواقه من دائرة اهتمامه، وما أهداف زيادة الإنتاج التي دفعت إلى نظريات تقسيم العلم والاصطفاء المسلكي؛ وهندسة الأداء؛ وحذف الحركات غير المجدية في عملية الإنتاج، إلا لون من إلغاء إنسانية الإنسان؛ وتحويله إلى آلة صماء يُنظر إليها من خلال ما تقدمه من إنتاج، حتى أصبح الإنسان بعد ساعات العمل يعاني من اهتزاز في أطراف جسمه، ويقوم بحركات عشوائية مماثلة لما يمارسه في العمل، إنه افتقد السيطرة والتحكم في حركته كإنسان[١].

---

(١) راجع تقديم عمر عبيد حسنة لكتاب قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر للدكتور زغلول راغب النجار ص ١٧ من كتاب الأمة.

ومعنى ذلك فإنه يمكننا أن نحدد مفهوم التخلف الحضاري بأنه عبارة عن (حركة جماعية للخلف في مجال الوسائل والأهداف السابقة، أو انعدام الحركة فيهما على الإطلاق)، والعجيب أنه لم يرد في المعجم الفلسفي - رغم حداثته - مفهوم التخلف، وإنما ورد فيه مصطلح (التراجع) على أنه بوجه عام يطلق على العودة إلى الوراء بعكس التقدم، وبوجه خاص يطلق مثلا في علم النفس على توقف النمو الذهني، والعودة إلى عصور أقل تقدما، ومنه قانون التراجع، ويدل على اختفاء الذكريات بسبب ضعف الذاكرة، ويطلق في علم الاجتماع على التحول المضاد للتقدم[١].

المطلب الثاني: دور الاستعمار الأوربي في تخلف العالم الإسلامي:

ويكفي أن أشير هنا إلى الدور الأساسي والكبير الذي لعبه الاستعمار الأوربي في تخلف العالم الإسلامي، وذلك في الوقت الذي ينادي فيه البعض بأن يحتفل المصريون بذكرى الحملة الفرنسية على مصر، بالرغم مما أصابها وأصابهم بسببها من تدمير وتنكيل، وما تعرض له الإسلام والأزهر وعلماؤه على يد هذه الحملة من مصائب ونكبات وإهانات[٢].

---

(١) راجع المعجم الفلسفي ص ٤٢.

(٢) ويكفي هنا أن أشير إلى وصف الجبرتي المؤرخ لما حدث بالقاهرة في يوم السبت ١٠ جمادي الأولى١٢١٣هـ الموافق ٢٠ أكتوبر١٧٩٨م حيث يقول ما لفظه: «بعد هجعة من الليل، دخل الإفْرِنجُ المدينة كالسيل، ومروا في الأزقة والشوارع، لا يجدون لهم ممانع، كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدموا ما وجدوه من المتاريس، ثم دخلوا إلى «الجامع الأزهر» وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفوقوا «أي قاءوا» بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة، والمجاورين، والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت =

ولا يعني ذلك أن العالم الإسلامي كان بمعزل عن التخلف في بداية الهجمة الاستعمارية عليه في العصر الحديث، وإنما لابد من الاعتراف بأنه كان يعيش حالة من الركود والتخلف في ميادين كثيرة نتيجة لعوامل مختلفة، ثم هجم عليه المستعمرون وهم مسلحون بحضارة مادية متقدمة. فقد استيقظت أمتنا على خطر الغزوات الاستعمارية الغربية الحديثة التي بدأها بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) بحملته على مصر سنة ١٧٩٨م، وتميزت هذه الغزوة عن تلك التي رفعت أعلام الصليب في العصور الوسطى، فأولئك كانوا فرسان إقطاع جهلة ليس لديهم سوى العنف والدمار، وكما يقول مؤرخنا أسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ) فلقد كانوا لعنهم الله بهائم ليست لديهم فضيلة سوى القتال! ولذلك لم يخلفوا وراءهم أثراً فكرياً يشكك أمتنا في هويتها المتميزة عن الغزاة، أما مع الغزوة الاستعمارية الحديثة فلقد اختلف الأمر كل الاختلاف، فجيوش الغرب الاستعماري قد جاءت إلينا هذه المرة مسلحة بحضارة حديثة منتصرة، حققت إنجازات رائدة ورائعة في ساحات العلوم والفنون والآداب، واقتحمت هذه الجيوش بلادنا ونحن نعيش في حالة من الركود والتخلف لا يمكن أن تصمد في معرض المقارنة بينه وبين التقدم الأوربي الحديث، حتى ولو كان الذين يجرون

=

بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه» وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها بحقد وشراسة. راجع: محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا محمود شاكر.ص ١٣١ -١٣٣ كتاب الهلال الطبعة الثالثة ١٩٩٠م.

هذه المقارنة من غلاة المتعصبين منا، أو من الجهلاء والبلهاء![١].

وانتهز طلائع الغزاة من المستشرقين جهلنا بتراث العصر الذهبي الذي ازدهرت فيه حضارتنا فأخذوا يلقون في عقولنا ووعينا أن حضارتنا العربية والاسلامية لم تتميز بشيء خاص ، حيث لم يكن أسلافنا إلا مجرد نقلة لتراث اليونان، وكانوا بذلك يهدفون إلى أن يستقر في وعينا وعقلنا؛ ويترسب في وجداننا ذلك المفهوم الذي يزعم أصحابه أن الحضارة في كل عصر هي حضارة واحدة، كانت قديماً يونانية، وهي اليوم أوربية، وعلى الذين يريدون التحضر أن يلهثوا حتى يصبحوا في الحضارة أوربيين، فهم المتقدمون ونحن «المتخلفون»، أما الحديث عن أن جوهر القضية هو سيطرة أوربا علينا وتبعيتنا لها، وأن الهدف يجب أن يكون خلع هذه التبعية واستعادة الاستقلال الحضاري لأمتنا، فهو - في زعمهم - أكذوبة من الأكاذيب! لقد قالوا لنا ذلك من خلال المدرسة والنادي والصحيفة والكتاب، وكل وسائل التوجيه والتأثير.

يذكر المرحوم شكيب أرسلان أن من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم، وهو من أشد الأمراض الاجتماعية؛ وأخبث الآفات الروحية؛ لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به؛ ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاء عليل يعتقد بحق أو بباطل أن علته قاتلته؟ وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية، وأن من أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء، فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون أنهم لا يصلحون لشيء، ولا يمكن أن يصلح على أيديهم شيء، وأنهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يضارعوا

(١) راجع الإسلام والمستقبل للدكتور محمد عمارة ص ٤٨.

الأوربيين في شيء، وكيف يمكنهم أن يناهضوا الأوربيين في معترك وهم موقنون أن الطائلة الأخيرة ستكون للأوربيين لا محالة؟! ويرى أن المسلمين أصبحوا يعتقدون في الأعصر الأخيرة أنه ما من صراع بين المسلم والأوربي إلا سينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه، وقر ذلك في نفوسهم وتخمر في رءوسهم، لا سيما هذه الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادقة، فإنها صارت تقرر هذه القاعدة المشؤومة في كل ناد، وتجعل التشاؤم المستمر من دلائل العقل وسعة الإدراك، وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين، ومن مقتضيات العلم والحكمة، وما زالت تنفخ في بوق التثبيط وتبث في سواد الأمة دعاية العجز إلى أن صار الاستخزاء ديدن الجميع، إلا من رحم ربك وكانت روحه من أصل فطرتها قوية عزيزة. ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية لا تقاس بحالة الإفرنج في قليل ولا كثير، بل زعمت أن التعب في مجاراة المسلمين لهم في علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو زراعة أو حرب أو سلم أو أي منحى من مناحي العمران هو ضرب من المحال، وشغل بالعبث لا يليق بالعاقل إتيانه، وكأن المسلمين من طينة والإفرنج من طينة أخرى، فعلو الأوربيين على المسلمين أمر لابد منه؛ وكأنه كتب في اللوح المحفوظ؛ وجف به القلم؛ ولم يبق أمام المسلمين إلا أن يعلموا كونهم طبقة منحطة عن طبقة الإفرنج، ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة، وقد أحس الأوربيون بما عند المسلمين من آفة الذل ومرض الاستخزاء فصاروا يروجون ذلك فيهم، ويقوون هذه العقيدة عندهم، لأن ذلك يوافق مصالحهم الاستعمارية، ولم يكونوا بملومين على ترويج هذه النظريات بين المسلمين؛ لأنها مما يسهل الاستعمار ويمهد طرقه؛ ويكفيهم المقاتلات والمنازلات؛ ويوفر عليهم المزاحمات والمسابقات؛ ويجعل لهم التفوق بلا نزاع؛ والتسلط

دون جدال، ولكن العجب كل العجب من هؤلاء المسلمين الذين أمرهم الله ليتصفوا بالعزة، ويتسموا بالأنفة، ويستوفوا تمام الرجولة كيف كانوا ينقادون لهذه الأضاليل التي مآلها عبوديتهم للأجانب؟!(١)

وعلي الرغم مما كان يسود العالم الإسلامي من تأخر وجمود وانحطاط إلا أنه في الوقت ذاته كان المسلمون قد بدأوا في الصعود إلى سلم النهوض، واستعادة ما كان عليه أسلافهم من حضارة وتقدم في الناحيتين المادية والروحية، وظهرت حركات إصلاحية ودعوات تجديدية حاولت القيام بهذا الدور، لكن الاستعمار الأوربي قام بمناهضة هذه الدعوات وتلك الحركات، فقد بدأت الحركة الإصلاحية الإسلامية المعاصرة بدعوة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والذي كان متأثرا بشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ودعوته الإصلاحية، وملخص ما دعا إليه ابن عبد الوهاب هو العودة إلى الدين الصحيح؛ ونبذ البدع والخرافات وكل ما هو دخيل على الإسلام والفكر الإسلامي، والاستقاء من معين الإسلام الصافي: القرآن والسنة وعلم السلف الصالح، وكانت حركته الإصلاحية هذه بداية يقظة في العالم الإسلامي، تدعو للعمل على سيادة مبادئ الإسلام الصحيحة، والقضاء على الفساد، وتأسيس دولة إسلامية وحكومة صالحة تحكم بمبادئ الإسلام، وتمثل أحكامه وتقيم حدوده(٢)، ويرى الأستاذ محمود شاكر أن الغاية الأولى المقدمة على كل غاية هي تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب «اليقظة» التي جاءت الحملة الفرنسية لوأدها في مهدها، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم، ووفرة هذه الكتب

(١) راجع لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ص ٨٩ – ٩٠، والإسلام والمستقبل للدكتور محمد عمارة ص٤٨ – ٤٩.

(٢) راجع معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان ص ١١٤.

النفيسة في القاهرة يومئذ هي التي يسرت الطريق إلى هذه «اليقظة» التي حمل عبء البدء بها «الجبرتي الكبير» وتلامذته، والبغدادي والزبيدي وتلامذتهما، فكان لابد للاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت به الحملة من أجله، فالهدف الأكبر وأد «اليقظة» في عقر دارها، وبلا شك كانت سنوات الحملة الثلاث، وما أصاب القاهرة فيها من التدمير الشنيع وسفك الدماء، وما عم أحياءها من الثورات والفتن الكبار والصغار، ثم قمعها بفجور وشراسة وتحضر أيضاً، كان ذلك كله حدثاً متمادياً كافياً أدى إلى تشتيت شمل تلامذة الجبرتي والبغدادي والزبيدي، وتفرقهم في الأرض وضياعهم في الهرج والمرج[١]. وكعادة المهزوم، الذي لا يصمد واقعه في المقارنة بواقع المنتصر، انبهر فريق من صفوة مثقفينا ومفكرينا بالغرب إلى الحد الذي تبنوا فيه الدعوة إلى ضرورة أن نصبح غرباً في كل شيء، في أنماط التفكير، وسبل التعبير وطرائق العيش، والعادات والتقاليد والأذواق والمعايير الجمالية... إلخ، فتبلور عندنا ما سمي بتيار «التغريب» !!، فلما سيطر أهل هذا التيار على مقدرات حياتنا في ظل الاستعمار المباشر والمقنع أصبحوا جيشاً آخر يمكِّن في الوطن فكرة الاستعمار، وصدق فيهم قول جمال الدين الأفغاني: «إن المقلدين للتمدن الغربي إنما يشوهون وجه الأمة ويضيعون ثروتها ويحطون من شأنها ! إنهم المنافذ لجيوش الغزاة يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب!!»[٢].

وفي الوقت الذي قام فيه المستعمرون بمناهضة دعوات الإصلاح وحركات التجديد أشاع هؤلاء أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، وأن

---

(١) راجع في الطريق إلي ثقافتنا ص ١٤٤ - ١٤٥

(٢) الأعمال الكاملة: جمال الدين الأفغاني ص ١٩٥ – ١٩٧

عليهم التخلص منه؛ والابتعاد عنه إذا أرادوا اللحاق بركاب التقدم والمدنية، فقد زعم «كرومر» أن الإسلام مناقض للحضارة، ولا يصلح لغير البيئة البدوية التي نشأ فيها، وأن المسلم لا يرجى منه أن يساير الحضارة الحديثة إلا إذا ترك دينه، وخرج بذلك من ربقة التعصب والجمود. وهو بهذا الافتراء على الإسلام أراد أن يلقي على الدين الإسلامي كل اللوم في مقاومة الاحتلال، وكأنه يعتذر عن إخفاقه في ترويض الحركة المناهضة للاستعمار، ولا شيء غير التعصب الأعمى يسوغ لكرومر خاصة أن يرى هذا الرأي، ويفتري ذلك الافتراء، ذلك أنه كان من المعجبين بحضارة اليونان، فكان من اليسير عليه أن يعلم أن الإسلام هو الذي نقل الحضارة الإغريقية إلى الأوربيين، وأن الأوربيين حرَّموا فلسفة هذه الحضارة وفرقوا بينها وبين الفلسفة الرشدية، وأن المسلمين الذين احتملوا تلك الفلسفة قبل القرون الوسطى لا يضيقون ذرعاً بالحضارة الحديثة وهم في القرن العشرين، كان ذلك يسيراً على اللورد كرومر لولا أنه مصاب بعسرين يصدانه عن ذلك النظر اليسير، وهما عسر التعصب وعسر الاستعمار[١].

ولم يكن كرومر أول مصاب بهذه العاهة النفسية بين أبناء قومه، فقد سبقه ولحق به كثير من كبار المستعمرين، ومن الذين لحقوا به وزير خطير هو اللورد لويد جورج المعروف، حيث وقف يتكلم عن دخول المارشال بيت المقدس فسماه الحرب الصليبية الأخيرة !، والحق أن المستعمرين كانوا يدركون قيمة الإسلام، ويعلمون أنه قادر على صنع الحضارة والتقدم مثلما صنع من قبل، وكان للمسلمين دور كبير في تأسيس الحضارة الغربية، لكنهم كانوا موقنين بأن الإسلام يقف حجر عثرة في طريق خططهم الاستعمارية، أو كما يقول «براون»

(١) راجع الإسلام والاستعمار للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٢٤٣

إن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام، وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي[١].

المطلب الثالث: من أسباب التأخر والانحطاط للمسلمين في العصر الحديث:

قبل أكثر من ثمانين عامًا، وبالتحديد في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٨هـ الموافق سنة ١٩٢٩م أرسل الشيخ محمد بسيوني عمران من «جاوة» إلى صاحب مجلة المنار الشيخ محمد رشيد رضا رسالة يُثنى فيها على الأعمال والمساعى التى يقوم بها الأمير شكيب في سبيل الإسلام، مقترحًا عليه أن يبين لـ«المنار» أسباب تأخر المسلمين بمقارنتهم بدول اليابان وأوروبا وأميركا، وهل يمكن مجاراتهم في سباق الحضارة مع المحافظة على دينهم الحنيف؟ فأحال الشيخ رضا الرسالة إلى الأمير، ويظهر أنها أثرت في نفسه فقرر الإجابة. وكان السؤال يلح في خاطره منذ زمن بعيد، يشغله عن ذلك شجون العالم الإسلامى، وما كان يعتريه من مؤامرات تُحاك في الخفاء، فقد بين شكيب أرسلان في البداية أنَّ الانحطاط والضعف اللذَيْن عليهما المسلمون اليوم شيءٌ عام لهم في المشارق والمغارب، فلم ينحصر في «جاوة» و«ملايو»، ولا في مكانٍ آخَر، وإنما هو مُتَفاوِتٌ في دَرَكاته؛ فمنه ما هو شديد العُمق، ومنه ما هو قريب الغَوْر، ومنه ما هو عظيم الخطر، ومنه ما هو أقل خطرًا. كما قرر أنَّ الشعوب الإسلاميَّة متشابهة في ضعفها، فحالتهم الحاضرة لا تُرضَى، لا من جهة الدِّين، ولا من جهة الدنيا، ولا من جهة المادة، ولا من جهة المعنى. وذكر أمثلةً لهذا الضعف، مثل: البوسنة، وأذربيجان، ومسلمى الصين. لقد حدَث ما حدث، فلا ينفع البكاء على اللبن المسكوب، لكن وجب علينا أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا

(١) راجع التبشير والاستعمار ص ١٨٤

التقَهْقُر في العالم الإسلامى بعد أنْ كان منذ أربعة عشر قرنًا هو الصدر المقدَّم، والسيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقًا وغربًا. يقول أرسلان: إن أسباب ارتقائهم في الماضى إنما تَرجِع إلى الإسلام الذي كان قد ظهر في الجزيرة العربية فدانَ به قبائل العرب، وتحولوا بهدايته من الفُرقة إلى الوَحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدَّلوا بأرواحهم الأولى أرواحًا جديدة، صيَّرتهم إلى ما صاروا عليه من عزٍّ ومنعة، ومجد وعرفان وثروة، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن، ولولا الخلافُ الذي عاد فدبَّ بينهم في أواخر خلافة عثمان وفي خلافة على رضي الله عنهما لكانوا أكملوا فتح العالم، ولم يقف في وجههم واقفٌ، لكن قدر الله وما شاء فعل.

إذا فحَصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذي استَقام به المسلمون سابقًا قد أصبح مفقودًا بلا نِزاع، وإنْ كان بقِيَ منه شيءٌ فكباقى الوشْم في ظاهر اليد؛ وإذا قُمنا بعمل مقابلة بين حالَى المسلمين والإفرنج اليوم فسنجد أن المسلمين قد فقَدُوا الحماسة التى كانت عند آبائهم، وقد تخلَّقَ بها أعداء الإسلام الذين لم يُوصِهم كتابُهم بهذا؛ فتجد أجنادَهم تتوارَدُ على حِياض المنايا سِباقًا؛ وتتلقَّى الأسِنَّة والرماح عِناقًا، فلقد فقَدُوا الغالى والنفيس، وضحَّوا بأغلى ما عندهم، ألا وهى نفوسهم -في سبيل نشْر دِينهم الباطل، أمَّا نحن فهل ينصرنا الله عزَّ وجلَّ- بدون عمل؟! بالطبع لا. ثم يجمل أرسلان أسباب تأخُّر المسلمين في الجهل والعلم الناقص، وفساد الأخلاق والجبن والهلع، واليأس والقنوط، ونسيان المسلمين ماضيهم المجيد، وشبهات الجبناء والجهلاء، وضياع الإسلام بين الجامدين والجاحدين، وعمل كلٍّ منهما.

وأطال أرسلان كلامه عن الرجعية والتقدُّم والجمود والجحود، وذكر ضمن كلامه اليابان ورقيَّها، وجعَلَها عبرةً للعرب وسائر المسلمين، بعد ذلك ذكر آيات العمل في القُرآن، المُبطِلة لتفسير القدَر بالجَبْر والكسل، وفَساد الزَّعم الإفرنجي، وأوضح أنَّ المسلمين الجامدين فتنةٌ لأعداء الإسلام وحجة عليه، وإنما يُؤتَى الإسلام من قِبَلِهم. أما عن شبهة مدنية الإسلام، فلقد أفرد لها حديثًا خاصًّا في جوابه، وردَّ على زعْم مَن زعَم أنَّ الإسلام لم يتمكَّن من تأسيس مدنية خاصَّة، ثم ساق الاستدلالَ على ذلك بحالته الحاضرة، وقال: إنَّ هذا الكلام خُرافة يُموِّه بها بعض أعداء الإسلام من الخارج وبعض جاحِديه من الداخل، ولكلٍّ منهم هدفُهم، فالأعداء يريدون أنْ يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبيَّة، أمَّا الجاحدون فيريدون أنْ يزرعوا في العالم الإسلامى بُذورَ الإلحاد، ويقول: إن أسباب انحِطاط المسلمين في العصر الحديث هى أسبابُه في العصر القديم، لكن زاد عليها فقْدُ كل الثقة بالنفس، وهو ما يُسمى في علم النفس عقدة النقص؛ فلقد دَبَّ اليأس في نفوس المسلمين -إلا مَن رَحِمَ الله- وظنُّوا -بل تيقَّن بعضهم- بعدم النصر، ووثقوا في ذلك، وكأنهم نَسُوا قول الله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، لكنَّ الأوائل كانوا واثقين في وعْد الله وهم الأعْلَون، فلم يهنوا ولم يحزنوا؛ ولذلك نصَرُوا اللهَ في أنفسهم فنصرهم الله، إلى أنْ دبَّ الخلاف. إنَّ فقْد الثقة بالنفس من أشدِّ الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، ولا يتسلَّط هذا الداء على إنسانٍ إلا أَوْدَى به، ولا على أمَّةٍ إلا ساقَها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاء عليلٌ يعتقد أنَّ علته قاتِلتُه؟! ويرى أرسلان أن المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا أنْ يعملوا الأعمال العمرانية التى يقوم بها الإفرنج، بعد ذلك دعا المؤلف الأمم ووجَّه همتها إلى أهميَّة الإصلاحات المعنوية والمادية في البلاد الإسلامية؛ فالشريعة لا تعرف حسبًا

ولا نسبًا، وإنما أكرَمُ الناس عند الله أتقاهم، وفي النهاية يرى أرسلان أن المسلمين لن ينهضوا إلاَّ بالأشياء التى نهض بها غيرُهم، وقد ذكر أمثلةً لهذه الأشياء، ومنها: الجهاد بالمال والنفس، والعلم. يقول: ولن يتمَّ للمسلمين -ولا لأيِّ أمَّة من الأمم- نجاحٌ أو رُقِيٌّ إلا بالتضحية، فإنَّ هذا الأمر قد أمر الله -عزَّ وجلَّ- به مِرارًا في كتابه العزيز، والحقيقة أنَّ هذه الأمور فروعٌ لا أصول، بل هى نتائج لا مقدِّمات، فإنَّ التضحية أو الجهاد بالمال والنفس هو العِلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلَّمت الأمَّة هذا العلم وعملت به، دانَتْ لها سائر العلوم والمعارف، ودنَتْ منها جميع القطوف والأماني، فلننفض غبار اليأس، ولنتقدَّم إلى الأمام، ولنعلم أنَّنا بالِغُون كلَّ أمنيَّة بالعمل والدأب والإقدام، وتحقيق شروط الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩][(١)].

ويرى الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه الشهير الذي سماه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) أن الجمود العلمي والكلال الفكري لم يكونا مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصابًا بالجدب العلمي، وشبه شلل فكري، قد أخذه الإعياء والفتور، واستولى عليه النعاس، ولعل القرن التاسع- إذا لم نقل القرن الثامن- آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار في الدين والعلم، والأدب والشعر والحكمة، والقرن العاشر أول قرون الخمود والتقليد والمحاكاة، وترى هذا الخمود عامًا شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور

(١) راجع كتابه لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم: شكيب أرسلان.

الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري، أو النابغة أو المحقق على الأقل، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر، أو زاد في العلم زيادة حسنة إذا استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي، ولا نقرأ في شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نظم وقيل فيها شعراً مطبوعاً يعلق بالذهن؛ أو إنشاء مترسلاً ينشرح له الصدر، ترى أدباً فاتراً بارداً قد أفسده التأنق في الحلية اللفظية؛ والمبالغة والتهويل في الألفاظ والمعاني؛ وكثرة التملق في المدح والغزل بالمذكر في الشعر، والتكلف حتى في الرسائل الإخوانية والأغراض الطبيعية، والسجع البارد حتى في كتب التاريخ والتراجم، كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين، وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين، وغصت بالحواشي والتقريرات والتلخيصات، والمتون التي ضن فيها مؤلفوها على القرطاس، وتعمدوا التعقيد والغموض، وكأنهم ألفوها في صناعة الاختزال، وكل ذلك ينبئ عن الانحطاط الفكري والعلمي الذي حل بالعالم الإسلامي، وتغلغل في أحشائه، ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب، بل كان هذا الانحطاط عاماً شاملاً، حتى تخلفوا عن أوربا في صناعة الحرب التي كان التركي في الزمن الأخير ابن بجدتها وأبا عذرتها، قد أقرّ بفضلهم وتبريزهم فيها العالم، ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها الجيوش العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤م)، وظهر سبقها في ميدان القتال أيضاً فانتبهت الدولة العثمانية بعض الانتباه، وانتدبت الماهرين الأوربيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر[1].

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابه المذكور ص١٤٨ – ١٥٥ و٢٥٨ – ٢٧٧

المطلب الرابع: من أسباب التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر:

يمر المسلمون اليوم بفترة من أقسى فترات التحدي الحضاري في تاريخهم الطويل، ويبلغ هذا التحدي مداه في مجال العلوم والتقنية، حيث تخلفت الدول الإسلامية تخلفا ملحوظا، بينما تقدمت المعارف في هذين المجالين تقدما مذهلا خلال القرن الحالي بصفة عامة، وفي النصف الأخير منه بصفة خاصة، مما ميز عصرنا بأنه عصر الصواريخ ورحلات الفضاء، وعصر الذرة والطاقة النووية، وعصر الإلكترونات والحواسيب الإلكترونية، أو بصفة أعم عصر العلوم والتقنية، وهذه مجالات لم تدخلها معظم الدول الإسلامية بعد، أو دخلتها بجهود فردية محدودة لا تكاد تساير تقدم العصر في ذلك، مما تسبب في وجود هوة شاسعة تفصل الدول الإسلامية (في زمرة الدول النامية) عن الدول المتقدمة علميا وتقنيا، في زمن يتضاعف حجم المعلومات فيه مرة كل عشر سنوات تقريبا، وتتسارع القدرة على تجديد الإمكانات التقنية كل ثلاث سنوات، ففي النصف الأول من القرن العشرين استمرت النهضة العلمية والتقنية التي بدأت في القرن التاسع عشر في نموها، وظهرت صناعة السيارات، كما عرفت صناعة النفط وتقنيات تكريره وتصنيعه، وتم اختراع الطائرة وتطويرها حتى أصبحت من أقوى أسلحة الحرب، وأفضل وسائل الانتقال المدنية، وتطورت صناعة اللدائن والأنسجة الصنعية، وتمت ميكنة الزراعة وتحسين المحاصيل عن طريق الأبحاث المكثفة في كل من علم الوراثة وعلم الكيمياء، وكان من أبرز معطيات هذه الثورة العلمية والتقنية المعاصرة، ومن أبرز أسباب نجاحها ربط هذين الرافدين الهامين من روافد المعرفة البشرية (وهما العلم والتقنية) برباط وثيق، لا تستطيع التقنية فيه أن تنفصل عن العلم، ولا يستطيع العلم فيه أن يتقدم بغير تقنيات دائمة التطور، وذلك في ظل إدارة

عصرية منضبطة، وتنظيم دقيق لجمع المعلومات وتوثيقها فيما يعرف اليوم باسم ثورة المعلومات، في غمرة هذا التقدم العلمي والتقني المذهل تخلف العالم الإسلامي تخلفا شديدا بعد أن حمل لواء المعرفة العلمية والفكرية والصناعية لعشرة قرون كاملة (من القرن السادس الميلادي إلى مشارف عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي).

فقد أسقطت الخلافة الإسلامية في سنة ١٩٢٤م، بعد احتلال مساحات كبيرة من أرض المسلمين، كما تم تمزيق هذا الجسد الواحد إلى أكثر من خمسين دولة متباينة المساحة وتعداد السكان، بالإضافة إلى أقليات منتشرة في كل دولة من الدول غير الإسلامية، تفوق أعدادها مئات الملايين في بعض هذه الدول. كما فقد العالم الإسلامي دولة ألبانيا وغالبيتها الساحقة من المسلمين، وفقد المسلمون أجزاء كثيرة عزيزة على نفوسهم مثل فلسطين، وولايتي جامو وكشمير والجمهوريات الإسلامية، التي ضمها الاتحاد السوفييتي، والولايات الإسلامية في كل من الصين والهند والفلبين، وقد أدى هذا التفتيت المتعمد إلى تشتيت المقومات المادية والروحية والطاقات البشرية للمسلمين، في وقت أخذ العالم فيه الاتجاه إلى التوحد في تكتلات اقتصادية وسياسية وعسكرية كبرى، ولم تعد فيه إمكانية لوجود مستقل لأية تجمعات بشرية يقل تعدادها عن مائة إلى مائة وخمسين مليون نسمة، وقد أدى تفتيت العالم الإسلامي إلى إفقاره فقرا شديدا على الرغم من ثرواته البشرية والطبيعية الهائلة، فالغالبية العظمى من سكان الدول الإسلامية اليوم (باستثناء الدول النفطية) تعيش تحت الحد الأدنى للكفاف اللازم لصون كرامة الإنسان، ففي تصنيف الأمم المتحدة قسم العالم إلى دول متقدمة تشمل الدول الصناعية الكبرى، والمتوسطة وتمثلها ٣٧ دولة أوروبية وأمريكية وآسيوية؛ يبلغ تعدادها حوالي ألف ومائة مليون نسمة (أي ربع سكان العالم تقريبا)، ودول نامية فقيرة، ودول معدمة تشمل ثلاثة أرباع سكان

العالم بتعداد يفوق ثلاثة آلاف مليون نسمة، وتقع غالبية دول العالم الإسلامي المعاصر في مجموعتي الدول النامية الفقيرة والدول المعدمة، فمن بين ست وثلاثين دولة معدمة في العالم تقع ٢٥ دولة إسلامية معاصرة في زمرتها، وقد صنفت هذه الدول المعدمة على أساس أن إجمالي الدخل القومي للفرد كان أقل من مائة دولار أمريكي في السنة، وأن نسبة الأمية فيها ٨٠٪ أو أكثر، وأن نصيب الصناعة من إجمالي الدخل القومي لا يتعدى ١٠٪، وقد أدى إفقار الدول الإسلامية إلى تفشي الأمية بين البالغين من أبنائها بصورة مزعجة، تتراوح نسبتها بين ٥٠-٨٠٪ بمتوسط حوالي ٥٨٪، بينما تقل نسبة الأمية في الدول الغنية عن ٢٪ ، ولا تتعدى هذه النسبة ٤٥٪ في المتوسط في دول العالم الثالث، مما يعني بوضوح أن أعلى نسبة للأمية بين البالغين في العالم اليوم هي في الدول الإسلامية، ومن عوامل تخلف المسلمين علميا وتقنيا إهمال دراسات العلوم والهندسة، وبإهمال هذه الدراسات ندرت الخبرات العلمية والتقنية، وبندرتها تخلفت الأمة، وتبلغ نسبة العلماء والتقنيين إلى مجموع تعداد السكان في الدول الإسلامية اليوم رقما لا يكاد أن يذكر إذا قورنت بنسبتهم في الدول المتقدمة علميا وتقنيا، إذ تتراوح هذه النسبة ٢٠ في المليون (بنجلاديش) و١٩٠ في المليون (مصر)، بينما تتراوح عند غير المسلمين بين ٤٣٠٠ في المليون (الكتلة الغربية)، و٨٢٠٠ في المليون (الكتلة الشرقية)، ويبلغ متوسط تلك النسبة في الدول النامية بصفة عامة حوالي ١٠٠ في المليون. هذه الأسباب المادية مجتمعة أدت إلى تخلف العالم الإسلامي عن مسيرة التقدم العلمي والتقني، فإذا أضيف إليها العديد من الأسباب المعنوية ومنها غياب التطبيق الصحيح للإسلام، والفهم الدقيق لرسالة الإنسان، والشعور بمعنى الأخوة الإسلامية في ظل من الصراع الشديد بين دعاه التغريب ودعاة التأصيل، وفي ظل فيض من الشعور الداخلي عند كثير من المسلمين المعاصرين بالانهزام والتخلف والضعف أمام التكتلات

العالمية الكبرى، وفي غياب البيئة الصالحة للتقدم العلمي والتقني، ومن أبرز مقوماتها الاستقرار السياسي والحرية الفردية والجماعية، هذه الأسباب جميعا كانت من وراء تخلف المسلمين اليوم عن الركب، وقد استعرضت من قبيل تشخيص الداء بحثا عن الدواء، لا من قبل تثبيط الهمم وإطفاء الحماس؛ لأن الأمة الإسلامية على الرغم من كل ذلك لا تزال تملك من القدرات البشرية والروحية، والإمكانات المادية لو اجتمعت ما يؤهلها لقيادة الإنسانية وإنقاذها من الهاوية التي تتردى فيها اليوم، خاصة وأن بيدها من نور الإسلام وهدي خاتم الأنبياء والمرسلين ما يعينها على ذلك، وأن الدول الكبرى التي زادها التقدم العلمي والتقني ثراء ورفاهية وقوة، قد زادها اضمحلال الوازع الديني، وجفاف النبع الروحي، وفقدان الفهم الصحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة، زادها ذلك كله في الوقت نفسه تحللا وتفسخا وانحطاطا وتميعا، مما جعل مجتمعاتها تتآكل من داخلها على الرغم من إطار التقدم العلمي والتقني الذي تعيش فيه[١]، وقد ألف الدكتور نبيل صبحي الطويل كتابا بعنوان: (الحرمان والتخلف في ديار المسلمين)، وأطلق عليه قصة التخلف الموجود والتكافل المفقود، وهذا الكتاب وضَع أغنياء المسلمين وولاة أمرهم أمام مسئولياتهم، وأوضح لهم بالأرقام تلك الثغور المفتوحة التي سوف يؤتون من قبلها إن عاجلًا أو آجلًا إذا لم يتداركوا الأمر، ووضع العاملين للإسلام ودعاته في الصورة الدقيقة؛ ليحددوا بعدها أولويات العمل وساحات الجهد الحقيقي؟[٢].

---

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر للدكتور زغلول النجار ص ١٥ وما بعدها مكتبة وهبة القاهرة.

(٢) راجع الحرمان والتخلف في ديار المسلمين كتاب الأمة رقم ٧ .

المبحث الثالث
التحدي الثالث غياب المرجعية

المطلب الأول: مفهوم المرجعية في اللغة والاصطلاح:

جاء في لسان العرب لابن منظور: رجع: رَجَع يَرْجِع رَجعًا ورُجُوعًا ورُجْعَى ورُجْعانًا ومَرْجِعًا ومَرْجِعةً: انصرف. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق:٨] أَي الرُّجوعَ والمَرجِعَ مصدر على فُعْلى وفيه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨] أَي رُجُوعكم حكاه سيبويه فيما جاء من المصادر التي من فَعَلَ يَفْعِل على مَفْعِل بالكسر، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] يعني العبد إِذا بعث يوم القيامة وأبصر وعرف ما كان ينكره في الدنيا يقول لربه: ارْجعون أَي رُدُّوني إِلى الدنيا وقوله ارجعون واقع ههنا ويكون لازمًا كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ومَصْدَرُهُ لازمًا الرُّجُوعُ ومصدره واقعًا الرَّجْع. يقال: رَجَعْته رَجْعًا فرجَع رُجُوعًا يستوي فيه لفظ اللازم والواقع[1]، فالرجوع إذن على اختلاف استعمالاته يفيد على العموم معنى الرد والعودة، في لسان العرب كما في خطاب الشرع.

مصطلح «المرجعية» في كتب المتأخرين:

أما مصطلح «المرجعية» في كتب المعاصرين فقد شاع شيوعًا واسعًا، إلا أن تحديد منشأ هذا المصطلح ومصدره الأول على وجه الدقة ما يزال مجهولاً، مع أنه يمكن أن يقال إن الإمامية هم أكثر من استعمل هذا المصطلح، أعني لفظ «المرجعية»، ويقصد المتأخرون بهذا المصطلح الأشخاص الذين يمثلون

(١) لسان العرب جزء ٨ صفحة ١١٤ - ١١٧.

الجهة العلمية التي يحتكم إليها الناس في شئون دينهم عامة، والذين يتمتعون بمصداقية كافية تؤهلهم لما هم فيه[١]، وعند التأمل في أقوال العلماء والمفكرين وأصحاب المذاهب والاتجاهات المختلفة نجد أن مصطلح (المرجعية) يستعمل في ثلاثة مستويات: الأول: (وهو أعلاها) يراد بالمرجعية فيه: الإطار الكلي والأساس المنهجي والركيزة الجوهرية في أي خطاب أو ملة أو مذهب أو دستور أو نظام، وهذا هو المستوى الأكبر من حيث العلو والعمومية والشمول والاستيعاب بحيث تصبح المرجعية هي المصدر النهائي الذي ترد إليها الأمور وتنسب إليها، فهي بهذه المثابة تصبح نظاماً كلياً عاماً، ومصدراً ضرورياً لتفسير كل شيء من خلال هذا النظام المرجعي الكلي.المستوى الثاني للمرجعية: المصادر والمستندات والأدلة التي يُعتمد عليها لتكوين أي نوع من أنواع المعرفة.وفي ذلك عدة اتجاهات قديماً وحديثاً، فهناك - على سبيل المثال- من قال بأن العقل هو مصدر المعرفة اليقينية،وادعى الحسيون أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة، وقال آخرون بأن الوحي وحده مصدر المعرفة، وعموم علماء الإسلام على أن الوحي والعقل والحس والفطرة مصادر للمعرفة وهي على درجات ولكل منها مقتضيات ومجالات.المستوى الثالث للمرجعية (ممثلو المرجعية): وهو الأشخاص الذين يعاد إليهم في الشئون العلمية أو العملية.. والصحابة مرجعية لأهل الإسلام (في الجملة) وأرسطو مرجعية لأهل الفلسفة.. بيد أن من أشهر من استعمل مصطلح (مرجعية) بهذا الاعتبار الشيعة، والمرجعية عند الاثني عشرية تأخذ صفة تتلبس بالقداسة، وتكاد تصل إلى درجة العصمة عند كثير منهم، وبذلك يتحول

(١) راجع المصدر السابق ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(المرجع) من ممثل لمرجعية فكرية أو عقدية إلى كونه هو بذاته يصبح (مرجعية).. أما عموم أهل السنة فيقل استعمالهم لمصطلح (مرجعية) وإذا استعملوه فيريدون به (العلماء) الذين هم عند أهل السنة ذرائع لمعرفة الحكم الشرعي، وطاعتهم مقيدة بهذا الاعتبار، فليست لهم طاعة مطلقة ولا طاعة ذاتية، وليس لهم حق في التشريع المطلق، ولا يتجاوز دورهم حفظ النصوص الوحي وفهمها واستنباط الأحكام منها، والنظر في النوازل وبيان الحكم الشرعي فيها بالرد إلى نصوص الشريعة وقد يصيبون وقد يخطئون.وقد تطلق (المرجعية) في هذا المستوى على الجهة التي يحتكم إليها المتخاصمون كالمحكمة والقاضي، أو الجهة التي بيدها الحل والعقد، كالوالي والحاكم والسلطان.ومما سبق يتضح أن المرجعية في المستوى الأول أعم وأشمل وأعمق، وفي المستوى الثاني هي الأدلة الكلية أو الجزئية والتي هي داعمة ومؤيدة ومقوية ومغذية للمستوى الأول، أما في المستوى الثالث فتصبح المرجعية النموذج المشاهد الذي يخرج بالمرجعية ومصادرها وأدلتها من حيز التجريد إلى حيز الوجود والتشخيص، بغض النظر عن الغلو في هذا أو عدمه، وقد يتمثل ذلك في عالم معتمد أو كتاب أو منهج علمي أو عملي، أو في هيئة أو نظام. ولعله بعد هذا العرض يمكن الخروج بمفهوم يجمع المستويات الثلاثة ويضمها في سياق واحد.فيقال المرجعية هي: (الإطار الكلي والأساسي المنهجي المستند إلى مصادر وأدلة معينة، لتكوين معرفة ما أو إدراك ما يبنى عليه قول أو مذهب أو اتجاه يتمثل في الواقع علماً أو عملاً)[1].

(١) راجع تفصيل ذلك في بحث (المرجعية: معناها وأهميتها وأقسامها) للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي:مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية ص ٣٧٤ – ٣٨٢ العدد ٩٥٠ رجب ١٤٣١ هـ.

المرجعية في الفكر الإسلامي:

في الفكر المعاصر يتردد كثيراً استعمال «المرجعية» وقد يريد بها هذا الاتجاه ما لا يريده الآخر، فلكل مراجعه وأصوله ومنطلقاته، وإنما تشترك في مبدأ الرجوع، وإذا ما غضضنا الطرف عن المرجعيات المغايرة الواقعة خارج الذات، فإننا نجد الاختلاف في مفهوم المرجعية الذاتية نفسها إلى أي شيء يكون الرجوع أولاً؟ وبآية درجة يتم ذلك؟ إلى الوحي الإلهي، القرآن أولاً والسنة ثانيًا، أم إلى تجربة الصدر الأول (السلف) وجيل الصحابة خصوصًا، أم إلى الحضارة العربية الإسلامية عامة بالتركيز على مكون معين من مكوناتها كالفكر الفلسفي والكلامي أو الفكر السياسي وتجربة الخلافة، أو الفكر الصوفي، أو التراث الفقهي.. إلخ، لاشك في أن عدم ضبط وتحديد وجهة الرجوع ومنهجية هذا الرجوع كان وما يزال الخلل الأكبر في فكر الأمة بتفريخ التيارات والمذاهب التي لا حصر لها، التجربة التاريخية المريرة التي لم يفد منها الفكر المعاصر، بل والتي يعيد إنتاجها بشكل أو بآخر، والتي لا تعدو أن تكون في معظمها كما كانت سابقًا، تعبيراً عن نزعات ذاتية ومذهبية يختصرها من هناك، يغلب عليها المنهج الانتقائي التجزيئي الذي لا ينظر إلى الوحي في كليته ولا إلى الإنجاز الحضاري والثقافي في كليته كما لا تنضبط في خلافها وتعددها بضابط حاسم.

إن الحديث عن مرجعية عامة وموحدة ليس عملاً تقنينيًا يهدف إلى محاصرة اتجاهات الفكر ووضعها في قوالب وإطارات جامدة تقدم الإنتاج نفسه، ولكنه حديث عن إطار جامع حاضن يوحد الاهتمامات ووجهات العمل مهما اختلفت بين تيارات الأمة، خاصة وأن التحديات القائمة بوجهها من حولها والنهوض بها من الأمور الضرورية العاجلة لكل إصلاح وتغيير،

وتستوجب ليس توحيد الاهتمام فحسب، بل أيضاً التقريب المتكامل في أشكال ومناهج المعالجة. إن وضع الأمة الراهن لم يعد يسمح بالتعدد إلى درجة التناقض والتنافي كما كان في مرحلة قوتها وتماسكها وسيادة حضارتها وثقافتها، علماً بأن كثيراً من تلك المذاهب قد كان لها آثار سلبية على الأمة ومَن خلف فيها، فالواقع الحالي يدعو إلى التوحد أكثر والتكتل حول القضايا المصيرية لمعالجتها وفق خطوات وأهداف واضحة المعالم[١]، ولذلك فإنه في سياق الحضارة العربية الإسلامية لا يمكن أن تكون المرجعية العليا إلا للوحي الهادي التي هي أقوم عقيدة وسلوكاً. الوحي الذي كان وراء النقلة الفريدة لهذه الأمة حال تلبسها به، بأن جعلها خير أمة شاهدة وقائدة، حملت إلى المعمورة قيماً ومبادئ جديدة في تنظيم عبادته وعمرانه واجتماعه، فبعكس ما حصل في الغرب نجح الإسلام منذ أيامه الأولى في أن يوحد بين الدين كمصدر لأخلاق فردية خاصة، وبين الشريعة (القانون) كمصدر لنظام اجتماعي سياسي «مدني»، ولعل ذلك نفسه راجع إلى أن الإسلام استطاع منذ البداية أن يوفق بين حاجات الحرية الشخصية وحاجات بناء السلطة، ولم يضطر إلى إحداث القطيعة بينهما، وباختصار لم يحصل في هذه التجربة ما يدعو إلى الفصل العميق بين الجهد العقلي الإنساني والوحي الإلهي، بل اعتبر هذا الجهد مكملاً للثاني وموافقاً له[٢]. وبهذا تحددت مصادر المعرفة بأحكام الإسلام، وبعبارة أخرى تحددت المرجعية العليا للإسلام، فليست هي لمجمع من المجامع الدينية أو العلمية كما عرف ذلك عند النصارى ومجامعهم المقدسة المسكونية، وليست هذه

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية للدكتور سعيد شبار ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) راجع المصدر السابق ص ٣٤١ - ٣٤٢.

المرجعية لرئيس ديني مهما علا كعبه في العلم والتقوى، فليس لدى المسلمين بابا يوصف بالقداسة والعصمة كما عند غيرهم، وليست هذه المرجعية لمدرسة أو مذهب أو طريقة قلدها مقلدون في مجال التربية والسلوك، فما وجد من ذلك في تاريخ الإسلام وتراثه إنما هو اجتهادات بشر غير معصومين في فهم الإسلام والعمل به، يؤخذ منهم ويرد عليهم، من أصاب فله أجران مادام هذا الاجتهاد صادرا من أهله في محله مصحوبا بالنية الصالحة، فقد تحددت المرجعية العليا في الإسلام للمصدرين الإلهيين المعصومين، القرآن والسنة، وإن شئت قلت هو مصدر واحد أو مرجع واحد، هو الوحي الإلهي، سواء كان وحيا جليا متلوا، وهو القران، أو وحيا غير جلي ولا متلو وهو السنة، أما عمل العقل الإسلامي في تفسير القرآن وشرح الحديث واستنباط الأحكام فلا عصمة له في مفرداته وجزئياته، ولكنه في مجموعه ضروري.

المطلب الثالث: غياب المرجعية وأثره في الثقافة الإسلامية:

تعاني الثقافة الإسلامية في هذا العصر ألوانا مختلفة من الأمراض التي انتشرت وشاعت بين كثير من المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، منها التفرق والتشرذم والاختلاف والتباغض والتناحر والتدابر، وسبب كل ذلك غياب المرجعية الشرعية التي يصدر عنها الناس وينطلقون منها عند حدوث الفتن ونزول الكوارث على الأمة. هذه المرجعية تمثلت في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه أصدق تمثيل في حياته وبعد مماته، بعدم تقديم قول أحد كائنًا من كان وحكمه على قوله وحكمه بدليل قول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا

مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، ثم تمثلت هذه المرجعية الشرعية في ولاة الأمر من العلماء والحكام المؤتمرين بأمر العلماء، فما فتئ المسلمون في كل عصر ومصر يلتفون حول ولاة أمرهم ويجتمعون عليهم ويصدرون عن رأيهم، ولا يبغون عنهم حولاً، حتى في عصر الضعف والانحطاط وخروج البعض على الخلافة واستبدادهم بدويلات صغيرة اقتطعوها من الدولة الإسلامية، ثم إقصاء الخلافة في الوقت الراهن. يرى الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر أن غياب المرجعية الواحدة سبب تخلف وتراجع المسلمين، حيث ذكر ذلك ضمن المؤتمر الدولي حول مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي بمقر جامعة الدول العربية بالقاهرة، فقد أكد في كلمته أن أمور الأمة تسير إلى ضعف مستمر، وهو ما يمثل أزمة نادرة في قلب نهضتها ومشاريعها الإصلاحية التي لم تتوقف منذ قرنين حتى هذه اللحظة، مشيرا إلى أن علة العلل هي فقدان وحدة المرجعية العليا، والتقلب بين مرجعيات عديدة شرقية تارة وغربية تارة أخرى، وأكد أن وحدة المرجعية ضرورة في تاريخ النهضات، لافتا إلى أن وحدة المرجعية لا تعد نقيضنا لحركة التطور، ولكن العكس هو الصحيح، حيث أثبت الواقع أن غياب المرجعية الواحدة هو أساس البلاء، وهو الذي جعل الأمة تبدو كمسخ شاة، وشدد على ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي لنعرف من نحن ومن هو الأخر وكيف نحاوره ونستفيد مما عنده، ونحمي أنفسنا من مخاطر غزوه الفكر، ومن أسباب الغلو عند الغلاة المعاصرين غياب المرجعية العلمية لدى رؤسائهم، فالمؤلفات التي يتبناها هؤلاء الغلاة صادرة في مجموعها عن جهلة متعالمين،

ليس لهم حظ من العلم، ذلك أن نقص العلماء في المجتمع المسلم وغياب المرجعية دفع كثيرا من الشباب إلى محاولة تثقيف أنفسهم، فتتلمذوا على الكتب دون معلم، كما دفع هذا النقص بأشخاص ليسوا مؤهلين من الناحية الشرعية لتبوء مواضع القيادة في الجماعات الغالية، حيث تصدرها شبان يتميزون بقوة الشخصية دون أن يكون لهم رصيد من العلم[١]، لذلك فإنهم لا يسمعون لمن يخالفهم في الرأي، ولا يقبلون الحوار معه، ولا يتصورون أن تتعرض آراؤهم للامتحان، بحيث توازن بغيرها، وتقبل المعارضة والترجيح، ذلك أن كثيرا منهم لم يتلق العلم من أهله وشيوخه المختصين بمعرفته، وإنما تلقاه من الكتب والصحف مباشرة، دون أن تتاح له فرصة المراجعة والمناقشة والأخذ والرد، واختبار فهمه ومعلوماته ووضعها على مشرحة التحليل، وطرحها على بساط البحث، ولكنه قرأ شيئًا وفهمه واستنبط منه، وربما أساء القراءة، أو أساء الفهم، أو أساء الاستنباط وهو لا يدري، وربما كان ثمة معارض أقوى وهو لا يعلم، لأنه لم يجد من يوقفه عليه، وغفل هؤلاء الشباب المخلصون أن علم الشريعة وفقهها لا بد أن يرجعوا فيه إلى أهله الثقات، وأنهم لا يستطيعون أن يخوضوا هذا الخضم الزاخر وحدهم، دون مرشد يأخذ بأيديهم، ويفسر لهم الغوامض والمصطلحات، ويرد الفروع إلى أصولها، والنظائر إلى أشباهها. فأما من سبح في هذا البحر وحده، ولم يكن حاذقًا في السباحة، فيخشى عليه أن تتقاذفه الأمواج، ويأخذه التيار إلى غير ما يريد، وكثيرًا ما يبتلعه اليمّ، ولا يصل إلى الشاطئ المنشود، ولا يجد من ينقذه، لأنه مضى وحده دون معين أو دليل، وهكذا دراسة الشريعة بغير معلم، لا تسلم من

(١) راجع تفصيل ذلك في مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر: الأسباب، الآثار، العلاج.

مخاطرات، ولا تخلو من ثُغرات وآفات، لا تتضح إلا بالممارسة والاحتكاك، وخصوصًا عند مفارق الطرق، ومواضع الاشتباه، وتعارض الأدلة والاعتبارات، وهذا ما جعل علماء السلف يحذرون من تلقي العلم عن هذا النوع من المتعلمين، ويقولون: لا تأخذ القرآن من مصحفي، ولا العلم من صُحُفي، يعنون بالمصحفي: الذي حفظ القرآن من المصحف فحسب، دون أن يتلقاه بالرواية والمشافهة من شيوخه وقرائه المتقنين، ويعنون بالصحُفي: الذي أخذ العلم من الصحف وحدها من غير أن يتتلمذ على أهل العلم، ويتخرج على أيديهم[١].

وقد شاعت هذه العبارة المأثورة (من كان شيخه كتابَه، كان خطؤه أكثر من صوابه)، وقد بين العلامة ابن خلدون ضرورة تلقي العلوم عن الشيوخ، فذكر أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، ويرى ابن خلدون أن لقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها،

(١) راجع الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٨٩ - ٩٠

مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين؛ وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[١]، ويري الإمام الشوكاني أن إنصاف الرجل لا يتم حتى يأخذ كل فن عن أهله كائنا ما كان، فالعالم إذا صنع ظفر بالحق من أبوابه ودخل إلى الإنصاف بأقوى أسبابه، وأما إذا أخذ العلم عن غير أهله ورجح ما يجده من الكلام لأهل العلم في فنون ليسوا من أهلها، وأعرض من كلام أهلها فإنه يخبط ويخلط، ويأتي من الأقوال والترجيحات بما هو في أبعد درجات الإتقان، وهو حقيق بذلك، فإن من ذهب يقلد أهل علم الفقه فيما ينقلونه من أحاديث الأحكام ولم يعتد بأئمة الحديث ولا أخذ عنهم واعتمد مؤلفاتهم كان حقيقا بأن يأخذ بأحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ، ويفرع عليه مسائل ليست من الشريعة، فيكون من المتقولين على الله بما لم يقل، المكلفين عباده بما لم يشرعه فيضل ويضل، ولا بد أن يكون عليه نصيب من وزر العاملين بتلك المسائل الباطلة إلى يوم القيامة، فإنه قد سن لهم سننا سيئة[٢].

وتحت عنوان (باب اختيار الفقهاء الذين يتعلم منهم) يذكر الخطيب البغدادي أنه ينبغي للمتعلم أن يقصد من الفقهاء من اشتهر بالديانة، وعرف بالستر والصيانة، قال: سمعت محمد بن سيرين، قال: إنما هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون، وينبغي أن يأخذ فقهه من أفواه العلماء لا من الصحف، عن سعيد عن سليمان يعني ابن موسى قال: لا تقرؤوا القرآن على المصحفيين،

---

(١) مقدمة ابن خلدون جزء ١ صفحة ٥٤١.

(٢) أدب الطلب ومنتهى الأدب جزء ١ صفحة ٧٦ - ٧٧.

ولا تأخذوا العلم من الصحفيين[١] ولذلك فإن الطبيب المصري علي بن رضوان بن علي بن جعفر أبو الحسن المصري رئيس الأطباء للحاكم صاحب مصر، حينما خالف هذه القاعدة المجمع عليها، حيث لم يكن له معلم في صناعة الطب ينسب إليه، وله مصنف في أن التعلم من الكتب أوفق من المعلمين، وجدنا الإمام الذهبي يترجم له فيقول: وكان ذا سفه في بحثه، ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنف كتابا في تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوفق من المعلمين، وهذا غلط.

وكان مسلما موحدا ثم قال مات سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة[٢]، وقد رد عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد، وذكر فصلا في العلل التي من أجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف إذا كان قبولهما واحدا وأورد عدة علل، وانتهى إلى أن القراءة على العلماء أفضل وأجدى من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه، وقد عقب الصفدي بقوله: ولهذا قال العلماء لا تأخذوا العلم من صحفي ولا مصحفي، يعني لا يقرأ القرآن على من قرأ من المصحف، ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف، وحسبك بما جرى لحماد لما قرأ في المصحف وما صحفه، وذلك مذكور في ترجمة حماد الراوية، وقد وقع لابن حزم وابن الجوزي أوهام وتصحيف معروفة عند أهلها، وناهيك بهذين الاثنين، وهذا الرئيس أبو علي ابن سينا وهو ما هو لما استبد بنفسه في الأدوية المفردة اتكالا على ذهنه لما سلم من سوء الفهم لم يسلم من التصحيف[٣].

(١) الفقيه والمتفقه جزء ٢ صفحة ١٩١ - ١٩٣.
(٢) سير أعلام النبلاء جزء ١٨ صفحة ١٠٥ – ١٠٦.
(٣) الوافي بالوفيات جزء ٢١ صفحة ٧٤ - ٧٥.

خاتمة: أهم نتائج البحث:

١ - التأكيد على أن الإسلام حذر من الجهل والجاهلين، واعتبر طلب العلم فريضة، واعتمد حسن توظيفه وسيلة لبناء الحضارة المثلى، ذلك أن الإنجاز الحضاري التاريخي كان مرتبطا باستمرار بمدى استجابة المسلمين للخطاب الإلهي، وارتفاعهم إلى مستوى إسلامهم، وحاجات عصرهم، وأن عهود الركود والتخلف والتقليد كانت تلقي بظلالها على فهم المسلمين للخطاب الإسلامي، وإدراك أبعاده.

٢ - إلقاء الأضواء الإضافية على جوانب المشكلة الثقافية، للوصول إلى إعادة صياغة وتشكيل العقل المسلم، أو إعادة ترتيب العقل العام لمسلم اليوم، وتخليصه من النظرات الجزئية المتناثرة، وعجزه عن مواجهة مشكلاته وتحدياته الداخلية منها والخارجية على حد سواء، على ضوء رؤية إسلامية ذات إخلاص وصواب، ودراية وفقه، يتحقق فيها طرفا المعادلة التي استحال علينا حلها طيلة عصر التخلف والسقوط الحضاري، والتي استعاذ منها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز التقي».

٣- الدعوة إلى العودة إلى الأصول الإسلامية الأولى المبرأة من البدع والخرافات، إذ لا نهضة يمكن أن تتحقق بمعزل عن الدين، ذلك أن الدين هو أساس الرقي والمدنية.

٤ - العودة إلى الأصول الإسلامية التي تتحقق النهضة الإسلامية في إطارها في مواجهة الدعوة إلى التغريب، ترتبط بالدعوة إلى رفض التقليد والجمود الفكري، الذي عزل النص الديني والتعاليم الإسلامية عن

واقع المسلمين ومشكلاتهم الحاضرة، كما أدى إلى تعطيل عمل العقل في النص الديني واستنباط الأحكام الفقهية منه، تلك الأحكام التي تدعو إليها ضرورة الواقع، ويرفض التقليد ومبرراته والدعوة إلى الاجتهاد، وإعمال العقل، وباحترام العلم يتحقق التوافق بين النص الديني الثابت والواقع التاريخي المتغير.

٥- العودة إلى الينابيع الإسلامية الأولى التي سببت الانطلاقة الأولى في الإسلام، ورفض كل سلطة سوى الكتاب والسنة، وضرورة تنقية الواقع الإسلامي من البدع التي علقت به، وعطلت تقدمه.

٦- إن حالة الانحطاط التي يعيشها المعاصرون تكمن في الابتعاد عن الدين الحق، وممارسة شعائر ليست من الإسلام في شيء، بعد أن طغت عليه شعوذة وسلطة مدعي الولاية والصلاح من الدجالين، الذين بثوا نزعات الشرك وصرفوا الأمة عن قواها العقلية والاجتماعية، كما صرفوها عن الاهتداء بكلام ربها إلى الاتكال على الأموات والاستمساك بحبل الخرافات، وهي الأمور التي حمل عليها رشيد رضا وغيره من المصلحين حملة شعواء كاسحة.

٧- العودة إلى الأصول الإسلامية الأولى المبرأة من البدع والخرافات التي ألصقت بها خلال عصور التخلف والجمود، ورفض التقليد والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد مرة أخرى، كي يتحقق الانسجام بين التعاليم الإسلامية النقية الصافية وبين الواقع الإسلامي المعيش، الذي انحط بسبب البعد عن الأصول الأولى.

٨- الدعوة إلى الأخذ بالعلوم الغربية التي أسهمت إسهاماً فعالاً في تطور الحضارة الغربية، ولكن أخذاً رشيداً على أيدي عارفين بشريعتنا وطبيعة ثقافتنا الإسلامية، مع العمل على توحيد المرجعية العليا للمسلمين.

فهرس المصادر والمراجع

١- الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية للدكتور سعيد شبار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولي ٢٠٠٧ م.

٢- الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين للدكتور محمد عمارة، طبعة جديدة ومزيدة، الطبعة الأولى لمكتبة الشروق الدولية بالقاهرة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣- أدب الطلب ومنتهى الأدب اسم المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، دار ابن حزم - لبنان / بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الله يحيى السريحي.

٤- إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة - بيروت.

٥- الإسلام والاستعمار للأستاذ عباس محمود العقاد، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.

٦- الإسلام والمستقبل للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤.

٧- الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

٨- الأعمال الكاملة: جمال الدين الأفغاني، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة، القاهرة ١٩٦٨م.

٩- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

١٠- التبشير والاستعمار للدكتورين مصطفي الخالدي وعمر فروخ، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٩٩٥م.

١١- التعريفات، الجرجاني، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

١٢- تفسير القرآن العظيم، تفسير ابن كثير، ابن كثير، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ.

١٣- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

١٤- تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥ - ١٩٨٥، الطبعة الأولى، تحقيق: د. السيد الجميلي.

١٥- الجامع الصحيح المختصر، صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، بيروت ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

١٦- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين، كتاب الأمة رقم ٧، الطبعة الأولى، شوال ١٤٠٤هـ.

١٧- ديوان الإمام الشافعي، الإمام الشافعي، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت - ١٤١٦-١٩٩٥، تحقيق: د. عمر فاروق الطباع.

١٨- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، للدكتور يوسف القرضاوي، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، شوال ١٤٠٢ هـ.

١٩- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، كتاب الهلال الطبعة الثالثة ١٩٩٠م.

٢٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى (لمكتبة المعارف) ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

٢١- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي.

٢٢- شرح النووي على صحيح مسلم، النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢، الطبعة الثانية.

٢٣- الشعر والشعراء: ابن قتيبة الدينوري، دار المعارف - القاهرة - ١٣٧٧-١٩٥٨، الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

٢٤- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٤١٣هـ، الطبعة: ط٢، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو.

٢٥- الطريق إلى اليقظة الإسلامية: د/ محمد عمارة، دار الشروق القاهرة بيروت ط ١ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

٢٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

٢٧- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٧٧، الطبعة الثانية.

٢٨- فضائح الباطنية: محمد بن محمد بن محمد الغزالي، مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت، تحقيق: عبد الرحمن بدوي.

٢٩- الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي - السعودية - ١٤٢١هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي.

٣٠- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، للعلامة الدكتور محمد البهي، مكتبة وهبة القاهرة.

٣١- الفوائد، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٣ - ١٩٧٣، الطبعة: الثانية.

٣٢- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، للدكتور زغلول راغب النجار، كتاب الأمة الطبعة الأولى. طبعة خاصة بمصر تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر للدكتور زغلول النجار وما بعدها مكتبة وهبة القاهرة.

٣٣- كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.

٣٤- كتاب الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري.

٣٥- لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى.

٣٦- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للشيخ أبي الحسن الندوي، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الثامنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤.

٣٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣ - ١٩٧٣، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٣٨- المرجعية: دراسة في المفهوم القرآني للدكتور عماد الدين رشيد مجلة جامعة دمشق للعلوم الإقتصادية والقانونية المجلد ٢١ العدد الأول ٢٠٠٥ م.

٣٩- (المرجعية: معناها وأهميتها وأقسامها) للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد ٥٠ ٩ رجب ١٤٣١ هـ.

٤٠- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٤١- مشكلة التخلف الحضاري عند المسلمين، للدكتور حامد طاهر من أبحاث المؤتمر الدولي السادس للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة محرم ١٤٢٢ إبريل ٢٠٠١.

٤٢- مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر: الأسباب، الآثار، العلاج للدكتور عبد الرحمن بن معلا اللويحق ج ٢ ص ٥٥٤ الطبعة الأولي ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٤٣- معجم ألفاظ القرآن الكريم،، مجمع اللغة العربية القاهرة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م طبعة منقحة.

٤٤- المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

٤٦- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية بمصر.

٤٧- معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان، مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة السادسة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٨- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة،، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٩- المفردات في غريب القرآن جزء ١ صفحة ١٠٢، أبو القاسم الحسين بن محمد، دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٥٠- مقدمة ابن خلدون جزء ١ صفحة ٥٤١اسم المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار النشر: دار القلم - بيروت - ١٩٨٤، الطبعة الخامسة.

٥١- الملل والنحل، الشهرستاني، دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٤، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٥٢- لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم: شكيب أرسلان كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة مصر.

٥٣- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دار إحياء التراث - بيروت - ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى.